مجلة البحوث الأكاديمية (العلوم الانسانية)، المجلد 30، العدد 01، 2026 "103-118"

# ما وراء القهر
# آليات أنتاج الطاعة الطوعية في فكر الجاحظ وميشيل فوكو

**د. حنان أحمد حبيب حبيب**

كلية التربية جامعة الزيتونة
hansnhabib200822@yahoo.com

استلمت الورقة بتاريخ 2026/02/13، وقبلت بتاريخ 2026/02/24 ونشرت بتاريخ 2026/02/25

**الكلمات المفتاحية:** الطاعة الطوعية ، الجاحظ ، ميشيل فوكو ، التَّطْبِيعِ الدَّاخِلِيّ،

**الملخص**

يسعى هَذَا البَحْثُ إِلَى تَفْكِيكِ آلِيّاتِ إِنْتاجِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ، لا بوصْفِها نَتاجًا مُباشِرًا لِلْقَهْرِ أَوِ الإِكْراهِ، بَل كَوْنِها شَكْلًا مُعَقَّدًا مِن أَشْكالِ التَّطْبِيعِ الدَّاخِلِيِّ مَعَ السُّلْطَةِ، يَتَشَكَّلُ عَبْرَ اللُّغَةِ، وَالخِطابِ، وَالعُرْفِ، وَالمَعْرِفَةِ. وَيُقَارِنُ البَحْثُ بَيْنَ تَصَوُّرِ الجاحِظِ لِعَلاقَةِ القُوَّةِ بِالْبَيانِ وَالْعَقْلِ وَالاعْتِيادِ، وَتَحْلِيلِ ميشيل فوكو لِمِيكانِيزْماتِ السُّلْطَةِ الحَدِيثَةِ الَّتِي تَعْمَلُ مِن خِلالِ الانضِباطِ، وَالمُراقَبَةِ، وَإِنْتاجِ الذَّاتِ المُنْصاعَةِ، يُبَيِّنُ البَحْثُ أَنَّ الجاحِظَ—ضِمْنَ سِياقِ القَرْنِ الثَّانِي الهِجْرِيِّ—قَدَّمَ قِراءةً نَقْدِيَّةً مُبَكِّرَةً لِكَيْفِيَّةِ تَشَكُّلِ الطَّاعَةِ مِن دُونِ عُنْفٍ مُباشِرٍ، عَبْرَ أَسْلُوبِ الإِقْناعِ، وَسُلْطانِ اللِّسانِ، وَقُوَّةِ العادَةِ، وَاسْتِدْماجِ الأَفْرادِ لِمَنْطِقِ السُّلْطَةِ حَتَّى يَغْدُوَ شُرَكاءَ فِي إِعادَةِ إِنْتاجِها. وَفِي المُقابِلِ، يَكْشِفُ فوكو أَنَّ السُّلْطَةَ الحَدِيثَةَ لا تَعْتَمِدُ عَلَى القَمْعِ فَقَطْ، بَل تَعْمَلُ مِن خِلالِ تَنْظِيمِ الأَجْسادِ، وَتَطْبِيعِ السُّلُوكِ، وَبِناءِ أَنْماطِ مَعْرِفِيَّةٍ تُحَوِّلُ الطَّاعَةَ إِلَى خِيارٍ يَبْدُو ذَاتِيًّا.

وَيَخْلُصُ البَحْثُ إِلَى أَنَّ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ لَيْسَتْ نَقِيضًا لِلْقَهْرِ، بَل شَكْلٌ أَعْمَقُ مِنْهُ؛ إِذْ تَنْتَقِلُ السُّلْطَةُ مِن فِعْلِ الإِجْبارِ إِلَى تَشْكِيلِ الوَعْيِ، وَمِن فَرْضِ الأَوامِرِ إِلَى بِناءِ الذَّاتِ الَّتِي تُطِيعُ دُونَ أَنْ تُؤْمَرَ. وَفِي هٰذَا الأُفُقِ، يَتَبَيَّنُ أَنَّ التَّقَاطُعَ بَيْنَ الجاحِظِ وَفوكو يُقَدِّمُ إِمْكانِيَّةً نَقْدِيَّةً عَالِيَةً لِفَهْمِ السُّلْطَةِ، لا كَبِنْيَةٍ فَوْقِيَّةٍ فَحَسْبُ، بَل كَعَلاقَةٍ تَسْكُنُ اللُّغَةَ، وَالعَقْلَ، وَالمُمَارَسَاتِ اليَوْمِيَّةَ.

Abstract English:

This study seeks to deconstruct the mechanisms through which voluntary obedience is produced, not as a mere outcome of coercion or overt repression, but as a complex process of internalized normalization operating through language, discourse, habit, and knowledge. It offers a comparative reading of al-Jahiz's reflections on power, eloquence, reason, and social custom within the Abbasid context, alongside Michel Foucault's analysis of modern power as exercised through discipline, surveillance, and the production of compliant subjects.

The paper argues that al-Jahiz articulated an early critical insight into forms of obedience that arise without direct force, emphasizing persuasion, rhetorical authority, habituation, and the subject's gradual assimilation of power's logic until individuals themselves become agents in its reproduction. By contrast, Foucault demonstrates that modern power does not primarily rely on repression, but rather on the regulation of bodies, the normalization of behavior, and the construction of knowledge regimes that render obedience a seemingly autonomous choice.

The study concludes that voluntary obedience is not the opposite of coercion, but its more sophisticated form: a shift from the imposition of commands to the shaping of consciousness, and from external domination to the internal construction of obedient subjectivity. In this regard, the convergence between al-Jahiz and Foucault opens a critical horizon for understanding power not merely as a top-down structure, but as a pervasive relation embedded in language, reason, and everyday practices.

**مُقَدِّمَةُ البَحْث:**

**شَهِدَتِ الدِّرَاسَاتُ الفَلْسَفِيَّةُ وَالسِّيَاسِيَّةُ المُعَاصِرَةُ تَحَوُّلًا مَلْحُوظًا فِي فَهْمِ السُّلْطَةِ، إِذْ لَمْ يَعُدْ يُنْظَرُ إِلَيْهَا بُوصْفِهَا مُنْحَصِرَةً فِي مَنْطِقِ القَهْرِ وَالإِكْرَاهِ، بَلْ أَصْبَحَ التَّحْلِيلُ يَنْصَرِفُ إِلَى أَشْكَالٍ أَكْثَرَ خُفُوتًا وَأَعْمَقَ فَاعِلِيَّةً، تَعْمَلُ فِي مُسْتَوَى الخِطَابِ وَالمَعْنَى وَتَشْكِيلِ الوَعْيِ. وَفِي هٰذَا الإِطَارِ، تَغْدُو الطَّاعَةُ لَا نَتِيجَةَ عُنْفٍ مُبَاشِرٍ، بَلْ أَثَرًا لِآلِيَّاتٍ رَمْزِيَّةٍ وَمَعْرِفِيَّةٍ تُنْتِجُ الامْتِثَالَ وَتُطَبِّعُهُ، حَتَّى يَتَحَوَّلَ إِلَى سُلُوكٍ طَوْعِيٍّ يُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهِ بِمُسَوِّغَاتٍ عَقْلِيَّةٍ وَأَخْلَاقِيَّةٍ.**

**وَلَمْ تَعُدِ السُّلْطَةُ تُفْهَمُ فِي التَّفْكِيرِ الفَلْسَفِيِّ الحَدِيثِ وَالمُعَاصِرِ عَلَى أَنَّهَا مُجَرَّدُ جِهَازٍ لِلْقَهْرِ وَفَرْضِ الطَّاعَةِ بِالقُوَّةِ، بَلْ أَصْبَحَ النَّظَرُ إِلَيْهَا يَنْصَرِفُ إِلَى تَحْلِيلِ تِلْكَ الأَشْكَالِ الَّتِي تَعْمَلُ فِي مُسْتَوَى المَعْنَى وَالخِطَابِ وَالعَادَةِ، حَيْثُ تَتَحَوَّلُ الطَّاعَةُ مِنْ فِعْلٍ مَفْرُوضٍ إِلَى سُلُوكٍ مُتَبَنًّى، وَمِنْ إِذْعَانٍ قَسْرِيٍّ إِلَى اقْتِنَاعٍ يُقَدَّمُ بُوصْفِهِ اخْتِيَارًا. فَالسُّلْطَةُ الأَخْطَرُ لَيْسَتْ تِلْكَ الَّتِي تُؤْلِمُ الجَسَدَ، بَلْ تِلْكَ الَّتِي تُقْنِعُ العَقْلَ، وَتُطَبِّعُ النَّفْسَ، وَتَجْعَلُ الخُضُوعَ جُزْءًا مِنْ بِنْيَةِ الذَّاتِ نَفْسِهَا.**

**وَمِنْ هٰذَا المُنْطَلَقِ، يَسْتَهْدِفُ هٰذَا البَحْثُ تَفْكِيكَ «الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ» لَا بِوَصْفِهَا نَقِيضًا لِلطَّاعَةِ القَهْرِيَّةِ، بَلْ بِوَصْفِهَا شَكْلًا أَكْثَرَ تَعْقِيدًا مِنْ أَشْكَالِ السُّلْطَةِ، يُنْتِجُ فِي مَسَارِ تَدْرِيجِيٍّ تَتَدَاخَلُ فِيهِ اللُّغَةُ وَالعَادَةُ وَالمَعْرِفَةُ وَالقِيَمُ، حَتَّى يَغْدُو الخُضُوعُ «طَبِيعِيًّا»، وَالطَّاعَةُ «مُسْتَحِقَّةً»، وَالسُّلْطَةُ «مَشْرُوعَةً» فِي وَعْيِ الفَرْدِ.**

**وَيَتَحَوَّلُ سُؤَالُ السِّيَاسَةِ، فِي هٰذَا السِّيَاقِ، مِنْ «مَنْ يَأْمُرُ؟» إِلَى «كَيْفَ نُصْبِحُ مُطِيعِينَ دُونَ أَنْ يُطْلَبَ مِنَّا ذٰلِكَ؟»، وَهُوَ مَا يَمْنَحُ تَعْبِيرَ «مَا وَرَاءَ القَهْرِ» دَلَالَتَهُ الفَلْسَفِيَّةَ، إِذْ لَا يَسْتَهْدِفُ نَقْدَ القَهْرِ فِي مَظَاهِرِهِ الصَّرِيحَةِ، بَلْ تَفْكِيكَ تِلْكَ الآلِيَّاتِ الَّتِي تَجْعَلُ القَهْرَ غَيْرَ ضَرُورِيٍّ**

**وَيَأْتِي اخْتِيَارُ الجاحظ وَميشيل فوكو لِتَحْلِيلِ هٰذِهِ الإِشْكَالِيَّةِ عَلَى أَسَاسِ تَقَاطُعٍ فِي الوَظِيفَةِ التَّحْلِيلِيَّةِ؛ فَالسُّلْطَةُ، فِي الحَالَتَيْنِ، لَا تَعْمَلُ عَلَى إِخْضَاعِ الأَجْسَادِ فَقَطْ، بَلْ عَلَى إِقْنَاعِ العُقُولِ، وَتَطْبِيعِ السُّلُوكِ، وَجَعْلِ المَأْلُوفِ مِعْيَارًا، وَالمِعْيَارِ رَقِيبًا دَاخِلِيًّا، بِمَا يُفْضِي إِلَى إِنْتَاجِ الطَّاعَةِ بُوصْفِهَا نِتَاجًا لِمَسَارٍ ثَقَافِيٍّ وَمَعْرِفِيٍّ، لَا لِفَرْضٍ قَسْرِيٍّ مُبَاشِرٍ.**

**وَبِهٰذَا، يَنْفَتِحُ أُفُقٌ تَحْلِيلِيٌّ يُمَكِّنُ مِنْ فَهْمِ كَيْفِيَّةِ صِنَاعَةِ الإِنْسَانِ المُطِيعِ، وَكَيْفَ تَتَحَوَّلُ السُّلْطَةُ إِلَى صَوْتٍ دَاخِلِيٍّ يُنَظِّمُ الذَّاتَ قَبْلَ أَنْ يُنَظِّمَ المَجْتَمَعَ يَأْتِي اخْتِيَارُ الجاحظ وَميشيل فوكو لِتَحْلِيلِ هٰذِهِ الإِشْكَالِيَّةِ عَلَى أَسَاسِ تَقَاطُعٍ فِي الوَظِيفَةِ التَّحْلِيلِيَّةِ، يُمَكِّنُ مِنْ فَهْمِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ بُوصْفِهَا نِتَاجَ «إِنْتَاجٍ» لَا «فَرْضٍ»، وَمَسَارًا تَتَشَابَكُ فِيهِ القُوَّةُ وَالمَعْنَى وَالقِيَمُ، وَبِهٰذَا يَتَحَوَّلُ سُؤَالُ السِّيَاسَةِ مِنْ «مَنْ يَأْمُرُ؟» إِلَى:**

**كَيْفَ نَتَعَلَّمُ أَنْ نُطِيعَ؟ وَكَيْفَ نُقْنَعُ بِأَنَّ الطَّاعَةَ فَضِيلَةٌ؟**

**أَوَّلًا: إِشْكَالِيَّةُ البَحْث:**

تَنْطَلِقُ إِشْكَالِيَّةُ هٰذَا البَحْثِ مِنَ التَّسَاؤُلِ عَنْ كَيْفِيَّةِ إِنْتَاجِ السُّلْطَةِ لِأَنْسَاقٍ مِنَ الطَّاعَةِ لَا تَقُومُ عَلَى القَهْرِ المُبَاشِرِ أَوِ الإِكْرَاهِ الصَّرِيحِ، بَلْ عَلَى آلِيَّاتٍ رَمْزِيَّةٍ وَخِطَابِيَّةٍ وَمَعْرِفِيَّةٍ تَعْمَلُ فِي مُسْتَوَى الوَعْيِ وَالمُمَارَسَةِ اليَوْمِيَّةِ.

فَكُلٌّ مِنَ الجَاحِظِ وَمِيشِيلِ فُوكُو، عَلَى الرَّغْمِ مِنِ اخْتِلَافِ السِّيَاقَيْنِ التَّارِيخِيَّيْنِ وَالمَعْرِفِيَّيْنِ، يَكْشِفُ عَنْ أَشْكَالٍ مِنَ السُّلْطَةِ الغَيْرِ قَسْرِيَّةِ، تَجْعَلُ الفَرْدَ شَرِيكًا فِي إِنْتَاجِ خُضُوعِهِ، وَفِي إِعَادَةِ تَدْوِيرِ آثَارِ السُّلْطَةِ دُونَ إِكْرَاهٍ مُبَاشِرٍ.

وَتَتَحَدَّدُ الإِشْكَالِيَّةُ المَرْكَزِيَّةُ فِي السُّؤَالِ الآتِي:

كَيْفَ تُنْتَجُ الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ بُوصْفِهَا شَكْلًا مِنْ أَشْكَالِ السُّلْطَةِ الغَيْرِ قَهْرِيَّةِ فِي فِكْرِ الجَاحِظِ وَمِيشِيلِ فُوكُو، وَمَا آلِيَّاتُهَا اللُّغَوِيَّةُ وَالخِطَابِيَّةُ وَالأَخْلَاقِيَّةُ؟

**ثَانِيًا: تساؤلات البَحْث**

1. مَا مَفْهُومُ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ فِي الإِطَارِ الفَلْسَفِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ؟
2. كَيْفَ عَالَجَ الجَاحِظُ دَوْرَ اللُّغَةِ وَالبَيَانِ وَالعَادَةِ فِي تَوْجِيهِ السُّلُوكِ دُونَ قَهْرٍ؟
3. كَيْفَ فَكَّكَ فُوكُو تِقْنِيَّاتِ السُّلْطَةِ النَّاعِمَةِ وَآلِيَّاتِ الضَّبْطِ الذَّاتِيِّ؟
4. مَا أَوْجُهُ الإِلْتِقَاءِ وَالاخْتِلَافِ بَيْنَ الجَاحِظِ وَفُوكُو فِي تَحْلِيلِ إِنْتَاجِ الطَّاعَةِ؟
5. إِلَى أَيِّ حَدٍّ يُمْكِنُ اعْتِبَارُ الجَاحِظِ مُقَدِّمَةً فِكْرِيَّةً لِنَقْدِ السُّلْطَةِ الغَيْرِ قَسْرِيَّةِ

**فَرَضِيَّاتُ البَحْث:**

(1) تَقُومُ الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ عَلَى آلِيَّاتٍ رَمْزِيَّةٍ وَمَعْرِفِيَّةٍ، وَلَا تَنْحَصِرُ فِي القَهْرِ المَادِّيِّ؛ إِذْ تُنْتَجُ عَبْرَ اللُّغَةِ وَالخِطَابِ وَتَطْبِيعِ العَادَاتِ وَإِضْفَاءِ المَشْرُوعِيَّةِ الأَخْلَاقِيَّةِ عَلَى السُّلُوكِ.

(2) يَتَضَمَّنُ فِكْرُ الجَاحِظِ تَصَوُّرًا مُبَكِّرًا لِلسُّلْطَةِ الغَيْرِ القَهْرِيَّةِ، تَعْمَلُ فِيهِ آلِيَّاتُ الإِقْنَاعِ وَالبَيَانِ وَالعَادَةِ عَلَى إِنْتَاجِ الامْتِثَالِ وَتَوْجِيهِ السُّلُوكِ دُونَ إِكْرَاهٍ مُبَاشِرٍ.

(3) يُفَسِّرُ مِيشِيلُ فُوكُو الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ بُوصْفِهَا نِتَاجًا لِتِقْنِيَّاتِ السُّلْطَةِ الحَدِيثَةِ الَّتِي تُشَكِّلُ الذَّاتَ وَتُؤَسِّسُ لِلضَّبْطِ الذَّاتِيِّ عَبْرَ المِعْيَارِ وَالمُؤَسَّسَةِ وَالخِطَابِ.

(4) يُوجَدُ تَقَاطُعٌ وَظِيفِيٌّ بَيْنَ فِكْرِ الجَاحِظِ وَفِكْرِ فُوكُو فِي تَحْلِيلِ آلِيَّاتِ إِنْتَاجِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنِ اخْتِلَافِ السِّيَاقَيْنِ التَّارِيخِيِّ وَالمَعْرِفِيِّ.

(5) تُسْهِمُ المُقَارَبَةُ المُقَارِنَةُ بَيْنَ الجَاحِظِ وَفُوكُو فِي تَفْكِيكِ التَّصَوُّرِ التَّقْلِيدِيِّ لِلسُّلْطَةِ، وَتُبَيِّنُ أَنَّ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ بِنْيَةٌ مُتَغَيِّرَةٌ تَتَشَكَّلُ بِتَغَيُّرِ الأَنْسَاقِ الثَّقَافِيَّةِ وَالمَعْرِفِيَّةِ.
(6) يُفْضِي فَهْمُ آلِيَّاتِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ إِلَى إِمْكَانِ تَفْكِيكِهَا وَفَتْحِ أُفُقِ المُقَاوَمَةِ النَّقْدِيَّةِ، مِنْ خِلَالِ وَعْيِ الفَرْدِ بِأَنْسَاقِ التَّطْبِيعِ وَالضَّبْطِ.

أَهْدَافُ البَحْثِ:

(1) تَفْكِيكُ مَفْهُومِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ بُوصْفِهَا نَمَطًا مِنْ أَنْسَاقِ السُّلْطَةِ الغَيْرِ القَهْرِيَّةِ، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ نَقِيضٍ لِلطَّاعَةِ القَسْرِيَّةِ.
(2) إِبْرَازُ أَنَّ السُّلْطَةَ تَعْمَلُ عَبْرَ آلِيَّاتٍ رَمْزِيَّةٍ وَمَعْرِفِيَّةٍ تُنْتِجُ الامْتِثَالَ وَتُطَبِّعُهُ دُونَ لُجُوءٍ إِلَى القَهْرِ المَادِّيِّ.
(3) تَحْلِيلُ آلِيَّاتِ إِنْتَاجِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ فِي فِكْرِ الجَاحِظِ، خُصُوصًا دَوْرَ اللُّغَةِ وَالبَيَانِ وَالعَادَةِ فِي تَوْجِيهِ السُّلُوكِ الإِنْسَانِيِّ.
(4) بَيَانُ كَيْفِيَّةِ تَشَكُّلِ السُّلْطَةِ الغَيْرِ المُبَاشِرَةِ فِي فِكْرِ مِيشِيلِ فُوكُو، مِنْ خِلَالِ تِقْنِيَّاتِ الضَّبْطِ وَإِنْتَاجِ الذَّاتِ.
(5) الكَشْفُ عَنْ أَوْجُهِ الإِلْتِقَاءِ وَالاخْتِلَافِ بَيْنَ الجَاحِظِ وَفُوكُو فِي تَفْسِيرِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ، مَعَ مُرَاعَاةِ الفُرُوقِ السِّيَاقِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ.
(6) تَقْدِيمُ مُقَارَبَةٍ فَلْسَفِيَّةٍ تُسْهِمُ فِي تَجْدِيدِ قِرَاءَةِ التُّرَاثِ العَرَبِيِّ الإِسْلَامِيِّ فِي ضَوْءِ نَقْدِ السُّلْطَةِ الغَيْرِ القَهْرِيَّةِ.
(7) فَتْحُ أُفُقٍ نَقْدِيٍّ لِفَهْمِ إِمْكَانَاتِ المُقَاوَمَةِ وَتَفْكِيكِ آلِيَّاتِ التَّطْبِيعِ وَالضَّبْطِ المُنْتِجَةِ لِلطَّاعَةِ.

**مَنْهَجِيَّةُ البَحْثِ:**

يَعْتَمِدُ هٰذَا البَحْثُ عَلَى المَنْهَجِ التَّحْلِيلِيِّ الفَلْسَفِيِّ فِي قِرَاءَةِ نُصُوصِ الجَاحِظِ وَمِيشِيلِ فُوكُو، مِنْ خِلَالِ تَفْكِيكِ المَفَاهِيمِ المَرْكَزِيَّةِ المُرْتَبِطَةِ بِالسُّلْطَةِ وَالطَّاعَةِ وَالخِطَابِ. كَمَا يَسْتَأْنِسُ بِالمَنْهَجِ المُقَارِنِ لِبَيَانِ أَوْجُهِ الإِلْتِقَاءِ وَالاخْتِلَافِ بَيْنَ النِّظَامَيْنِ المَعْرِفِيَّيْنِ، مَعَ مُرَاعَاةِ الفُرُوقِ السِّيَاقِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ دُونَ وُقُوعٍ فِي الإِسْقَاطِ المَفْهُومِيِّ. وَيُوَظِّفُ البَحْثُ عَنَاصِرَ مِنْ تَحْلِيلِ الخِطَابِ لِكَشْفِ آلِيَّاتِ إِنْتَاجِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ وَتَطْبِيعِهَا فِي النُّصُوصِ، بِمَا يَخْدِمُ الإِجَابَةَ عَنْ إِشْكَالِيَّةِ البَحْثِ وَاخْتِبَارَ فَرَضِيَّاتِهِ

الدِّرَاسَاتُ السَّابِقَةُ وَأَصَالَةُ البَحْثِ وَفَجْوَتُهُ العِلْمِيَّةُ:

يُظْهِرُ اسْتِقْرَاءُ الدِّرَاسَاتِ السَّابِقَةِ أَنَّ إِشْكَالِيَّةَ الطَّاعَةِ قَدْ عُولِجَتْ فِي الفِكْرِ السِّيَاسِيِّ الكِلَاسِيكِيِّ ضِمْنَ أُطُرِ الشَّرْعِيَّةِ وَالتَّعَاقُدِ وَالسِّيَادَةِ، كَمَا فِي أَعْمَالِ توماس هوبز، خُصُوصًا فِي كتابه «اللِّيفْيَاثَان»، حَيْثُ يَرْبِطُ الطَّاعَةَ بِالتَّنَازُلِ الطَّوْعِيِّ عَنِ الحُرِّيَّةِ مُقَابِلَ الأَمْنِ وَالاِسْتِقْرَارِ (هوبز، اللِّيفياثان، ترجمة: د. دياب، دار التنوير، 2011، ص 85–102). وَفِي السِّيَاقِ نَفْسِهِ، يُؤَكِّدُ جون لوك فِي «مقالتان في الحُكْم المدني» أَنَّ الطَّاعَةَ مَشْرُوطَةٌ بِحِفْظِ الحُقُوقِ الطَّبِيعِيَّةِ (لوك، مقالتان في الحكم المدني، ترجمة: ماجد فخري، دار النهار، 1994، ص 134–156)، بَيْنَمَا يَرُدُّهَا جان جاك روسو إِلَى مَفْهُومِ الإِرَادَةِ العَامَّةِ فِي «العَقْد الاجتماعي» (روسو، العقد الاجتماعي، ترجمة: عادل زعيتر، دار المعارف، 1985، ص 41–63).

وَقَدْ أَضَافَ ماكس فيبر بُعْدًا سُوسْيُولُوجِيًّا مُهِمًّا، إِذْ رَبَطَ الطَّاعَةَ بِالاِعْتِقَادِ فِي مَشْرُوعِيَّةِ السُّلْطَةِ، مِنْ خِلَالِ تَحْلِيلِ أَنْوَاعِ الشَّرْعِيَّةِ (التَّقْلِيدِيَّةِ، وَالكَارِيزْمِيَّةِ، وَالقَانُونِيَّةِ–العَقْلَانِيَّةِ)، كَمَا وَرَدَ فِي «الاِقْتِصَاد وَالمُجْتَمَع» (فيبر، الاقتصاد والمجتمع، ترجمة: فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995، ج 1، ص 212–245). وَمَعَ ذٰلِكَ، تَبْقَى هٰذِهِ المُقَارَبَاتُ حَبِيسَةَ نَمُوذَجِ الطَّاعَةِ المُؤَسَّسِيَّةِ الصَّرِيحَةِ، دُونَ تَفْكِيكٍ لِآلِيَّاتِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ فِي مُسْتَوَى الخِطَابِ وَالثَّقَافَةِ.

أَمَّا فِي الفِكْرِ المُعَاصِرِ، فَقَدْ شَكَّلَتْ أَعْمَالُ ميشيل فوكو مَنْعَطَفًا نَوْعِيًّا، إِذْ أَعَادَ تَعْرِيفَ السُّلْطَةِ بُوصْفِهَا شَبَكَةَ عَلَاقَاتٍ تُنْتِجُ الذَّاتَ وَتُطَبِّعُ السُّلُوكَ. فَفِي «المراقبة والمعاقبة»، يَكْشِفُ فُوكُو عَنْ تَحَوُّلِ العُقُوبَةِ إِلَى آلِيَّاتِ الاِنْضِبَاطِ وَالمُرَاقَبَةِ الذَّاتِيَّةِ (فوكو، المراقبة والمعاقبة، ترجمة: علي الكردي، دار الطليعة، 2004، ص 135–169)، وَفِي «تاريخ الجنسانية» يُبَيِّنُ كَيْفَ تَعْمَلُ السُّلْطَةُ عَبْرَ الخِطَابِ وَإِنْتَاجِ المَعْرِفَةِ (فوكو، تاريخ الجنسانية، ترجمة: جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، 2006، ج 1، ص 29–52). غَيْرَ أَنَّ مُعْظَمَ هٰذِهِ الدِّرَاسَاتِ بَقِيَ حَبِيسَ السِّيَاقِ الغَرْبِيِّ الحَدِيثِ، دُونَ اِنْفِتَاحٍ مَنْهَجِيٍّ عَلَى التُّرَاثِ العَرَبِيِّ الإِسْلَامِيِّ.

فِي المُقَابِلِ، اِنْصَرَفَتِ الدِّرَاسَاتُ الَّتِي تَنَاوَلَتْ الجاحظ إِلَى بَلَاغَتِهِ وَبَيَانِهِ وَمَشْرُوعِهِ الثَّقَافِيِّ، كَمَا عِنْدَ شَوْقِي ضَيْف فِي «الفن ومذاهبه في النثر العربي» (دار المعارف، 1960، ص 201–223)، وَعَبْدِ السَّلَامِ هَارُون فِي تَحْقِيقَاتِهِ لِـ**«البيان والتبيين»** (دار الجيل، 1985، ج 1، ص 15–28)، وَمُحَمَّدٍ عَابِدٍ الجَابِرِيِّ فِي «تكوين العقل العربي» (مركز دراسات الوحدة العربية، 1984، ص 78–96). وَرَغْمَ إِشَارَاتٍ حَدِيثَةٍ إِلَى بُعْدِ السُّلْطَةِ وَنَقْدِ الاِسْتِبْدَادِ عِنْدَ الجاحظ، فَإِنَّهَا لَمْ تُفْرِدْ مَوْضُوعَ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ وَآلِيَّاتِ إِنْتَاجِهَا كَإِشْكَالِيَّةٍ فَلْسَفِيَّةٍ مُسْتَقِلَّةٍ.

وَبِذٰلِكَ، تَتَحَدَّدُ الفَجْوَةُ البَحْثِيَّةُ فِي غِيَابِ دِرَاسَةٍ فَلْسَفِيَّةٍ مُقَارِنَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ تَحْلِيلِ الجَاحِظِ لِسُلْطَةِ اللُّغَةِ وَالعَادَةِ وَالبَيَانِ، وَتَحْلِيلِ فُوكُو لِتِقْنِيَّاتِ السُّلْطَةِ وَإِنْتَاجِ الذَّاتِ، فِي سِيَاقِ سُؤَالٍ مَرْكَزِيٍّ وَاحِدٍ هُوَ: كَيْفَ تُنْتَجُ الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ خَارِجَ مَنْطِقِ القَهْرِ؟ وَمِنْ هُنَا تَنْبَعُ أَصَالَةُ هٰذَا البَحْثِ وَمَشْرُوعِيَّتُهُ.

المَبْحَثُ الأَوَّل: الإِطَارُ المَفْهُومِيُّ لِلطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ وَالسُّلْطَةِ الغَيْرِ القَهْرِيَّةِ:

يُعْنَى هٰذَا المَبْحَثُ بِتَأْسِيسِ المَفَاهِيمِ النَّظَرِيَّةِ الَّتِي يَنْبَنِي عَلَيْهَا البَحْثُ، وَتَحْدِيدِ الحُدُودِ الدَّلَالِيَّةِ لِلطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ.

- المَطْلَبُ الأَوَّلُ: مَفْهُومُ الطَّاعَةِ بَيْنَ الإِكْرَاهِ وَالاقْتِنَاعِ فِي الفِكْرِ السِّيَاسِيِّ
- المَطْلَبُ الثَّانِي: تَحَوُّلَاتُ مَفْهُومِ السُّلْطَةِ: مِنَ القَهْرِ إِلَى الضَّبْطِ وَالتَّطْبِيعِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ بُوصْفِهَا بِنْيَةً مَعْرِفِيَّةً وَخِطَابِيَّةً

المَبْحَثُ الثَّانِي: آلِيَّاتُ إِنْتَاجِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ فِي فِكْرِ الجَاحِظِ

يَسْتَهْدِفُ هٰذَا المَبْحَثُ تَحْلِيلَ الكَيْفِيَّةِ الَّتِي تَعْمَلُ بِهَا السُّلْطَةُ فِي نُصُوصِ الجَاحِظِ دُونَ قَهْرٍ مُبَاشِرٍ، مِنْ خِلَالِ اللُّغَةِ وَالعَادَةِ وَالتَّبْرِيرِ العَقْلِيِّ.

- المَطْلَبُ الأَوَّلُ: سُلْطَةُ البَيَانِ وَالإِقْنَاعِ فِي تَوْجِيهِ السُّلُوكِ
- المَطْلَبُ الثَّانِي: العَادَةُ وَالتَّطْبِيعُ الثَّقَافِيُّ كَآلِيَّتَيْ ضَبْطٍ صَامِتَتَيْنِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: الأَخْلَاقُ وَالعَقْلُ العَمَلِيُّ وَحُدُودُ الطَّاعَةِ

المَبْحَثُ الثَّالِث: الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ وَتِقْنِيَّاتُ السُّلْطَةِ عِنْدَ مِيشِيلِ فُوكُو (قِرَاءَةٌ مُقَارِنَةٌ)

يُخَصَّصُ هٰذَا المَبْحَثُ لِتَحْلِيلِ نَمُوذَجِ فُوكُو فِي فَهْمِ السُّلْطَةِ الغَيْرِ القَهْرِيَّةِ، مَعَ رَبْطِهِ نَقْدِيًّا بِمَا سَبَقَ تَحْلِيلُهُ عِنْدَ الجَاحِظِ.

- المَطْلَبُ الأَوَّلُ: السُّلْطَةُ كَشَبَكَةِ عَلَاقَاتٍ وَإِنْتَاجُ الذَّاتِ المُنْضَبِطَةِ
- المَطْلَبُ الثَّانِي: الضَّبْطُ الذَّاتِيُّ وَالتَّطْبِيعُ وَدَوْرُ المِعْيَارِ
- المَطْلَبُ الثَّالِث: أَوْجُهُ الإِلْتِقَاءِ وَالاخْتِلَافِ بَيْنَ الجَاحِظِ وَفُوكُو فِي إِنْتَاجِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّة

الخَاتِمَة

ونتائج البحث

أَهَمُّ النَّتَائِجِ، وَتَحْدِيدُ مَوْضِعِ الإِضَافَةِ العِلْمِيَّةِ، وَآفَاقُ البَحْثِ المُسْتَقْبَلِيَّةِ.

**المَبْحَثُ الأَوَّل:** الإِطَارُ المَفْهُومِيُّ لِلطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ وَالسُّلْطَةِ الغَيْرِ القَهْرِيَّةِ**

**تَمْهِيدُ:**

يُعَدُّ تَحْدِيدُ الإِطَارِ المَفْهُومِيِّ مَدْخَلًا أَسَاسِيًّا لِفَهْمِ مَسْأَلَةِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ وَتَفْكِيكِ آلِيَّاتِ تَشَكُّلِهَا، خَاصَّةً أَنَّ هٰذَا المَفْهُومَ يَقَعُ فِي مَنْطِقَةٍ فَلْسَفِيَّةٍ وَسَطَى بَيْنَ الإِكْرَاهِ وَالاخْتِيَارِ، وَبَيْنَ القَهْرِ وَالاقْتِنَاعِ. فَالطَّاعَةُ لَا تَتَجَلَّى دَائِمًا فِي صُوَرِهَا الصَّرِيحَةِ كَامْتِثَالٍ مَفْرُوضٍ تَحْتَ وَطْأَةِ العُنْفِ أَوِ التَّهْدِيدِ، بَلْ تَتَخَذُ – فِي كَثِيرٍ مِنَ السِّيَاقَاتِ – شَكْلًا أَكْثَرَ تَعْقِيدًا وَخُفُوتًا، حَيْثُ تُقَدَّمُ بُوصْفِهَا سُلُوكًا «طَبِيعِيًّا» أَوْ «عَقْلَانِيًّا» أَوْ «أَخْلَاقِيًّا»، فَتَغْدُو الطَّاعَةُ نَتِيجَةَ اِسْتِبْطَانٍ لِمُسَوِّغَاتِهَا لَا مَجَرَّدَ خُضُوعٍ لِقُوَّةٍ خَارِجِيَّةٍ.

وَمِنْ هُنَا، يَنْفَتِحُ سُؤَالُ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ عَلَى بُعْدٍ فَلْسَفِيٍّ مُرَكَّبٍ يَتَجَاوَزُ التَّقْسِيمَاتِ التَّقْلِيدِيَّةَ الَّتِي تُقَابِلُ بَيْنَ الحُرِّيَّةِ وَالسُّلْطَةِ أَوْ بَيْنَ القَهْرِ وَالطَّاعَةِ. فَالطَّاعَةُ، فِي هٰذَا السِّيَاقِ، لَا تُفْهَمُ كَفِقْدَانٍ لِلْحُرِّيَّةِ بِلْضَّرُورَةِ، بَلْ كَأَثَرٍ لِعَمَلِيَّاتٍ مَعْرِفِيَّةٍ وَخِطَابِيَّةٍ تُعِيدُ تَشْكِيلَ وَعْيِ الفَرْدِ بِذَاتِهِ وَبِالعَالَمِ، وَتُحَوِّلُ الامْتِثَالَ إِلَى خِيَارٍ يَبْدُو مُنْسَجِمًا مَعَ «العَقْلِ» أَوِ «النِّظَامِ» أَوِ «المَصْلَحَةِ».

وَيَرْتَبِطُ مَفْهُومُ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ اِرْتِبَاطًا وَثِيقًا بِتَحَوُّلِ مَفْهُومِ السُّلْطَةِ نَفْسِهِ؛ فَالسُّلْطَةُ لَمْ تَعُدْ – فِي التَّفْكِيرِ السِّيَاسِيِّ وَالفَلْسَفِيِّ الحَدِيثِ – تُحَدَّدُ حَصْرًا بِوَصْفِهَا أَدَاةً لِلْقَهْرِ وَالإِكْرَاهِ، بَلْ أَصْبَحَ يُنْظَرُ إِلَيْهَا كَبِنْيَةٍ عَلَاقِيَّةٍ تَعْمَلُ مِنْ خِلَالِ أَنْسَاقٍ رَمْزِيَّةٍ وَمَعَايِيرَ اجْتِمَاعِيَّةٍ وَخِطَابَاتٍ تُنْتِجُ الطَّاعَةَ دُونَ حَاجَةٍ إِلَى عُنْفٍ مُبَاشِرٍ. وَفِي هٰذَا الإِطَارِ، تَغْدُو السُّلْطَةُ الغَيْرُ القَهْرِيَّةُ أَكْثَرَ فَاعِلِيَّةً؛ لِأَنَّهَا تَعْمَلُ عَلَى تَشْكِيلِ الذَّاتِ قَبْلَ تَوْجِيهِ السُّلُوكِ.

وَيَسْعَى هٰذَا المَبْحَثُ إِلَى تَأْسِيسِ فَهْمٍ مَفْهُومِيٍّ دَقِيقٍ لِلطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ، مِنْ خِلَالِ تَتَبُّعِ جُذُورِهَا الفَلْسَفِيَّةِ وَتَحَوُّلَاتِ مَفْهُومِ السُّلْطَةِ مِنَ القَهْرِ إِلَى الضَّبْطِ وَالتَّطْبِيعِ. كَمَا يَهْدِفُ إِلَى بَيَانِ أَنَّ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ لَا تَنْشَأُ فِي فَرَاغٍ، بَلْ هِيَ نَتَاجُ تَشَابُكٍ بَيْنَ المَعْرِفَةِ وَالخِطَابِ وَالعَادَةِ وَالقِيَمِ، وَأَنَّ فَهْمَ هٰذَا التَّشَابُكِ يُمَثِّلُ شَرْطًا أَسَاسِيًّا لِتَفْكِيكِ آلِيَّاتِ السُّلْطَةِ الَّتِي تَعْمَلُ «مَا وَرَاءَ القَهْرِ»

وَعَلَيْهِ، يَأْتِي هٰذَا المَبْحَثُ تَمْهِيدًا نَظَرِيًّا لِمَا سَيَلِيهِ مِنْ تَحْلِيلٍ نَصِّيٍّ فِي فِكْرِ الجَاحِظِ وَمِيشِيلِ فُوكُو، إِذْ يُوَفِّرُ الأَدَوَاتِ المَفْهُومِيَّةَ الَّتِي تُسَاعِدُ عَلَى فَهْمِ كَيْفِيَّةِ إِنْتَاجِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ، وَعَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا هُوَ قَهْرٌ صَرِيحٌ وَمَا هُوَ سُلْطَةٌ صَامِتَةٌ تُدِيرُ السُّلُوكَ مِنْ دَاخِلِه

**المطلب الأول: الطاعَةُ بَيْنَ الإِكْرَاهِ وَالإِقْتِنَاعِ:**

يَتَطَلَّبُ فَهْمُ مَفْهُومِ الطَّاعَةِ تَحْرِيرَهُ مِنَ الاخْتِزَالِ الَّذِي يَرْبِطُهُ آلِيًّا بِالإِكْرَاهِ وَالقَهْرِ. فَالطَّاعَةُ، فِي بِنْيَتِهَا الفَلْسَفِيَّةِ، لَا تَنْحَصِرُ فِي الامْتِثَالِ القَسْرِيِّ، بَلْ تَنْفَتِحُ عَلَى أُفُقٍ أَعْقَدَ يَتَدَاخَلُ فِيهِ العُنْفُ وَالاقْتِنَاعُ، وَالضَّغْطُ وَالرِّضَا، وَالخَوْفُ وَالتَّبْرِيرُ العَقْلِيُّ. وَمِنْ هُنَا، يَصِحُّ القَوْلُ إِنَّ الطَّاعَةَ لَا تَكُونُ دَائِمًا نَقِيضَ الحُرِّيَّةِ، بَلْ قَدْ تَتَشَكَّلُ أَحْيَانًا فِي صُورَةِ «حُرِّيَّةٍ مُؤَطَّرَةٍ».

1- الطَّاعَةُ القَهْرِيَّةُ: الإِكْرَاهُ بُوصْفِهِ آلِيَّةً خَارِجِيَّةً: تَرْتَبِطُ الطَّاعَةُ القَهْرِيَّةُ بِالاِسْتِعْمَالِ المُبَاشِرِ لِلْقُوَّةِ أَوْ بِالتَّهْدِيدِ بِهَا، حَيْثُ يَغْدُو الامْتِثَالُ فِعْلًا دِفَاعِيًّا تَفْرِضُهُ غَرِيزَةُ البَقَاءِ أَوِ الخَوْفُ مِنَ العِقَابِ. وَفِي هٰذَا السِّيَاقِ، يُعَرِّفُ تُومَاسْ هُوبْزْ الطَّاعَةَ فِي إِطَارِ السِّيَادَةِ المُطْلَقَةِ، حَيْثُ يَتَنَازَلُ الأَفْرَادُ عَنْ جُزْءٍ مِنْ حُرِّيَّتِهِمْ مُقَابِلَ الأَمْنِ، وَتَكُونُ الطَّاعَةُ هُنَا نَتِيجَةً لِلْخَوْفِ مِنَ العَوْدِ إِلَى «حَالَةِ الطَّبِيعَةِ».( اللفياثان، 2011، ص 117–130)

الطاعة عند هوبز ليست اقتناعًا أخلاقيًا، بل خيار اضطراري، يقوم على المفاضلة بين الخوف من السلطة والخوف من الفوضى. وهي طاعة هشّة، مشروطة ببقاء السلطة قادرة على الردع.

وَيَتَّضِحُ مِنْ هٰذَا التَّصَوُّرِ أَنَّ الطَّاعَةَ القَهْرِيَّةَ تَظَلُّ مَرْهُونَةً بِحُضُورِ القُوَّةِ، وَتَفْتَقِرُ إِلَى الِاسْتِدَامَةِ؛ فَكُلَّمَا غَابَ الرَّقِيبُ أَوْ ضَعُفَتِ السُّلْطَةُ، تَآكَلَ الِامْتِثَالُ.

2- الطَّاعَةُ القَائِمَةُ عَلَى الِاقْتِنَاعِ: تَشْكُلُ الخُضُوعِ مِنَ الدَّاخِلِ: عَلَى النَّقِيضِ مِنْ ذٰلِكَ، تَنْبَثِقُ الطَّاعَةُ القَائِمَةُ عَلَى الِاقْتِنَاعِ مِنْ عَمَلِيَّاتٍ دَاخِلِيَّةٍ تُعِيدُ تَشْكِيلَ وَعْيِ الفَرْدِ، حَيْثُ يَتَحَوَّلُ الِامْتِثَالُ إِلَى سُلُوكٍ يُبَرَّرُ بِالعَقْلِ وَالقِيَمِ وَالعَادَةِ. وَفِي هٰذَا السِّيَاقِ، يُبَيِّنُ مَاكْس فِيبَر أَنَّ الطَّاعَةَ تَنْشَأُ لَا مِنَ الخَوْفِ فَقَطْ، بَلْ مِنَ «الِاعْتِقَادِ بِمَشْرُوعِيَّةِ الأَمْرِ».( فيبر، 1995، ج 1، ص 212–230)

ما يلفت عند فيبر أن الطاعة قد تكون طوعية تمامًا، لأن الفرد يرى الأمر مشروعًا، لا لأنه مكره عليه. وهنا تبدأ السلطة بالتحول من فعل خارجي إلى قناعة داخلية.

إِلَّا أَنَّ هٰذَا النَّمَطَ مِنَ الطَّاعَةِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ظَاهِرِهِ العَقْلَانِيِّ، لَا يَعْنِي ضَرُورَةً حُرِّيَّةً نَقِيَّةً؛ فَالاقْتِنَاعُ نَفْسُهُ قَدْ يَكُونُ نَتِيجَةَ تَشْكِيلٍ خِطَابِيٍّ وَتَرْبَوِيٍّ وَثَقَافِيٍّ طَوِيلِ الأَمَدِ.

3- مِنَ الِاقْتِنَاعِ إِلَى الِاسْتِبْطَانِ: الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ كَبِنْيَةٍ سُلْطَوِيَّةٍ خَفِيَّةٍ: هُنَا يَبْلُغُ التَّحْلِيلُ ذُرْوَتَهُ مَعَ مِيشِيلِ فُوكُو، الَّذِي يَنْقُلُ سُؤَالَ الطَّاعَةِ مِنْ مَجَالِ الشَّرْعِيَّةِ إِلَى مَجَالِ تِقْنِيَّاتِ السُّلْطَةِ. فَالطَّاعَةُ، فِي تَحْلِيلِهِ، لَا تُنْتَجُ بِالأَوَامِرِ، بَلْ بِتَشْكِيلِ الذَّاتِ نَفْسِهَا، حَيْثُ «يُصْبِحُ الفَرْدُ مَبْدَأَ خُضُوعِهِ».((Michel 1980, p. 98

فوكو يبين أن أخطر أنواع الطاعة هي تلك التي لا تحتاج إلى أمر، لأن الفرد يراقب ذاته ذاتيًا، ويمارس السلطة على نفسه باسم العقل، النظام، أو الطبيعي.

وَيُؤَكِّدُ فُوكُو فِي المراقبة والمعاقبة أَنَّ السُّلْطَةَ الحَدِيثَةَ تَنْجَحُ حِينَ تُحَوِّلُ الطَّاعَةَ إِلَى عَادَةٍ، وَالانْضِبَاطَ إِلَى سُلُوكٍ يَوْمِيٍّ، وَالخُضُوعَ إِلَى قَنَاعَةٍ صَامِتَةٍ.( فوكو، 2004، ص 203–225)

4- خُلَاصَةٌ مَفْهُومِيَّةٌ: يَتَبَيَّنُ، فِي ضَوْءِ هٰذَا التَّحْلِيلِ، أَنَّ الطَّاعَةَ تَتَدَرَّجُ مِنَ الإِكْرَاهِ الصَّرِيحِ إِلَى الِاقْتِنَاعِ، وَمِنْ ثَمَّ إِلَى الِاسْتِبْطَانِ، حَيْثُ تَغْدُو السُّلْطَةُ أَقَلَّ ظُهُورًا وَأَشَدَّ فَاعِلِيَّةً. وَهُنَا تَتَشَكَّلُ الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ بُوصْفِهَا نَتَاجًا لِعَمَلِيَّاتٍ مَعْرِفِيَّةٍ وَخِطَابِيَّةٍ تُدِيرُ السُّلُوكَ «مَا وَرَاءَ القَهْرِ»، وَتُؤَسِّسُ لِمَا سَيَكُونُ مَحَلَّ تَحْلِيلٍ فِي المَبَاحِثِ اللَّاحِقَةِ.

****الطَّاعَةُ بَيْنَ الإِكْرَاهِ وَالاقْتِنَاعِ مِنَ الجَاحِظِ إِلَى مِيشِيلِ فُوكُو****

يَقْتَضِي تَحْلِيلُ مَفْهُومِ الطَّاعَةِ تَجَاوُزَ التَّصَوُّرِ التَّقْلِيدِيِّ الَّذِي يَحْصُرُهَا فِي الِامْتِثَالِ القَهْرِيِّ، لِفَتْحِ الأُفُقِ أَمَامَ فَهْمٍ أَعْمَقَ يَتَتَبَّعُ تَدَرُّجَهَا مِنَ الإِكْرَاهِ الظَّاهِرِ إِلَى الِاقْتِنَاعِ، وَمِنْ ثَمَّ إِلَى الِاسْتِبْطَانِ. وَيَتَأَسَّسُ هٰذَا التَّدَرُّجُ عَلَى نَقْلِ مَحَلِّ السُّلْطَةِ مِنَ الخَارِجِ إِلَى الدَّاخِلِ، وَمِنَ الجَسَدِ إِلَى الوَعْيِ، وَمِنَ الأَمْرِ إِلَى الخِطَابِ.

1- الجَاحِظُ: مِنَ القَهْرِ إِلَى الإِقْنَاعِ – سُلْطَةُ البَيَانِ وَالعَادَةِ: يُقَدِّمُ الجَاحِظُ تَصَوُّرًا مُبَكِّرًا لِلسُّلْطَةِ يَتَجَاوَزُ مَنْطِقَ القَهْرِ الصَّرِيحِ، وَيَنْفَتِحُ عَلَى دَوْرِ اللُّغَةِ وَالبَيَانِ وَالعَادَةِ فِي تَوْجِيهِ السُّلُوكِ الإِنْسَانِيِّ. فَهُوَ يُدْرِكُ أَنَّ التَّأْثِيرَ الأَعْمَقَ لَا يَتَحَقَّقُ بِالسَّيْفِ، بَلْ بِالإِقْنَاعِ وَتَشْكِيلِ الأَذْوَاقِ وَتَرْسِيخِ المَأْلُوفِ.

يَقُولُ الجَاحِظُ: «إِنَّمَا الشَّأْنُ فِي إِقَامَةِ الوَزْنِ، وَتَخَيُّرِ اللَّفْظِ، وَسُهُولَةِ المَخْرَجِ...».(الجاحظ، ج 1، ص 75–76)

شرح النص: يُفِيدُ هٰذَا النَّصُّ أَنَّ التَّأْثِيرَ لَا يَقُومُ عَلَى القَهْرِ، بَلْ عَلَى حُسْنِ صِيَاغَةِ القَوْلِ، أَيْ عَلَى سُلْطَةٍ رَمْزِيَّةٍ تُقْنِعُ المُتَلَقِّي وَتَجْعَلُهُ قَابِلًا لِلِامْتِثَالِ دُونَ إِكْرَاهٍ. وَهُنَا تَتَشَكَّلُ الطَّاعَةُ بُوصْفِهَا أَثَرًا لِلْبَيَانِ لَا لِلْقُوَّةِ.

وَيُؤَكِّدُ الجَاحِظُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ عَلَى قُوَّةِ العَادَةِ، إِذْ يَرَى أَنَّ المَأْلُوفَ يَكْتَسِبُ مَشْرُوعِيَّتَهُ مِنْ تَكْرَارِهِ، حَتَّى يَغْدُو كَأَنَّهُ الطَّبِيعَةُ نَفْسُهَا.(الجاحظ، ج 1، ص 33–35)

هُنَا نَكُونُ أَمَامَ نَمَطٍ مِنَ الطَّاعَةِ لَا يَنْشَأُ عَنْ خَوْفٍ، بَلْ عَنْ تَطْبِيعٍ ثَقَافِيٍّ؛ فَالذَّاتُ تُطِيعُ لِأَنَّهَا تَعَوَّدَتْ، وَلِأَنَّ العَادَةَ تَحَوَّلَتْ إِلَى مِعْيَارٍ صَامِتٍ. وَهٰذَا يُمَثِّلُ بُذُورَ مَا سَيُعْرَفُ لَاحِقًا بِالسُّلْطَةِ الغَيْرِ القَهْرِيَّةِ.

2- مِنَ الإِقْنَاعِ إِلَى الشَّرْعَنَةِ: الطَّاعَةُ كَاقْتِنَاعٍ مَعْقُولٍ: يَتَطَوَّرُ مَفْهُومُ الطَّاعَةِ فِي الفِكْرِ السِّيَاسِيِّ لِيُصْبِحَ مُرْتَبِطًا لَا بِالإِكْرَاهِ، بَلْ بِالاقْتِنَاعِ بِمَشْرُوعِيَّةِ الأَمْرِ. وَيَظْهَرُ هٰذَا بِوُضُوحٍ فِي التَّحْلِيلِ السُّوسْيُولُوجِيِّ عِنْدَ مَاكْس فِيبَر، الَّذِي يَرَى أَنَّ الطَّاعَةَ تَنْبَعُ مِنْ اِعْتِقَادِ الأَفْرَادِ بِشَرْعِيَّةِ السُّلْطَةِ، لَا مِنَ الخَوْفِ فَقَطْ. (فيبر، 1995، ج 1، ص 212–230)

فِي هٰذِهِ المَرْحَلَةِ، تَنْتَقِلُ الطَّاعَةُ مِنْ مَجَالِ الإِجْبَارِ إِلَى مَجَالِ الِاقْتِنَاعِ، لَكِنَّهَا تَبْقَى مَرْهُونَةً بِبِنْيَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ تُشَكِّلُ الوَعْيَ، وَهُوَ مَا يَفْتَحُ الطَّرِيقَ أَمَامَ نَقْدٍ أَعْمَقَ لِمَصَادِرِ هٰذَا الاقْتِنَاعِ نَفْسِهِ.

3- مِيشِيلُ فُوكُو: الطَّاعَةُ كَاسْتِبْطَانٍ – السُّلْطَةُ الَّتِي تُنْتِجُ الذَّاتَ: يَبْلُغُ تَحْلِيلُ الطَّاعَةِ ذُرْوَتَهُ مَعَ مِيشِيلِ فُوكُو، الَّذِي يُفَكِّكُ فِكْرَةَ الطَّاعَةِ مِنْ جُذُورِهَا، مُبَيِّنًا أَنَّهَا لَا تُفْرَضُ بِالأَوَامِرِ، بَلْ تُنْتَجُ عَبْرَ تِقْنِيَّاتٍ تُشَكِّلُ الذَّاتَ نَفْسَهَا. فَيَقُولُ: «إِنَّ السُّلْطَةَ تَبْلُغُ أَقْصَى فَاعِلِيَّتِهَا حِينَ تُنْتِجُ أَفْرَادًا يُمَارِسُونَهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ»( (Michel, 1980, p. 98.

يَعْنِي ذٰلِكَ أَنَّ الطَّاعَةَ لَمْ تَعُدْ فِعْلًا مُوَجَّهًا مِنْ خَارِجٍ، بَلْ سُلُوكًا ذَاتِيًّا؛ فَالفَرْدُ يُرَاقِبُ نَفْسَهُ، وَيُقَوِّمُهَا، وَيُطِيعُ دُونَ أَنْ يُؤْمَرَ. وَهُنَا تَتَحَوَّلُ الطَّاعَةُ إِلَى بِنْيَةٍ دَاخِلِيَّةٍ مُتَجَذِّرَةٍ.

وَيُبَيِّنُ فُوكُو فِي المراقبة والمعاقبة أَنَّ الانْضِبَاطَ لَا يَعْمَلُ بِالقَهْرِ، بَلْ بِالتَّطْبِيعِ، أَيْ بِجَعْلِ السُّلُوكِ المَطْلُوبِ هُوَ السُّلُوكُ «الطَّبِيعِيُّ»(فوكو، 2004، ص 201–225)

يَتَّضِحُ، مِنَ الجَاحِظِ إِلَى فُوكُو، أَنَّ الطَّاعَةَ تَشْهَدُ تَحَوُّلًا جَوْهَرِيًّا:

- مِنَ قَهْرٍ ظَاهِرٍ ←
- إِلَى إِقْنَاعٍ بَيَانِيٍّ وَثَقَافِيٍّ ←
- ثُمَّ إِلَى اسْتِبْطَانٍ وَضَبْطٍ ذَاتِيٍّ.

وَهٰذَا التَّدَرُّجُ يُؤَسِّسُ لِفَهْمِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ بُوصْفِهَا أَخْطَرَ أَشْكَالِ السُّلْطَةِ؛ لِأَنَّهَا تَعْمَلُ «مَا وَرَاءَ القَهْرِ»، وَتُحَوِّلُ الخُضُوعَ إِلَى قَنَاعَةٍ، وَالمِعْيَارَ إِلَى طَبِيعَةٍ.

خُلَاصَةُ المَطْلَبِ الأَوَّل:

يُفْضِي التَّحْلِيلُ المَفْهُومِيُّ لِلطَّاعَةِ، فِي ضَوْءِ التَّدَرُّجِ الفَلْسَفِيِّ مِنَ الجَاحِظِ إِلَى مِيشِيلِ فُوكُو، إِلَى تَجَاوُزِ التَّصَوُّرِ التَّقْلِيدِيِّ الَّذِي يَرْبِطُ الطَّاعَةَ بِالإِكْرَاهِ المُبَاشِرِ وَالعُنْفِ الصَّرِيحِ. فَالطَّاعَةُ لَا تَتَشَكَّلُ دَائِمًا فِي صُورَةِ خُضُوعٍ قَسْرِيٍّ، بَلْ تَتَّخِذُ أَشْكَالًا أَكْثَرَ خُفُوتًا وَأَشَدَّ فَاعِلِيَّةً، تَعْمَلُ فِي مَسْتَوَى الإِقْنَاعِ وَالتَّطْبِيعِ وَالاِسْتِبْطَانِ.

فَقَدْ كَشَفَ التَّنَاوُلُ التُّرَاثِيُّ عِنْدَ الجَاحِظِ عَنْ إِدْرَاكٍ مُبَكِّرٍ لِأَنَّ السُّلْطَةَ لَا تَعْمَلُ بِالسَّيْفِ وَحْدَهُ، بَلْ بِاللُّغَةِ وَالبَيَانِ وَالعَادَةِ، حَيْثُ يُنْتِجُ الإِقْنَاعُ وَتَكْرَارُ المَأْلُوفِ نَمَطًا مِنَ الاِمْتِثَالِ الَّذِي يَبْدُو طَبِيعِيًّا وَمُبَرَّرًا، وَهُوَ مَا يُؤَسِّسُ لِطَاعَةٍ لَا تَحْتَاجُ إِلَى إِكْرَاهٍ صَرِيحٍ. وَهُنَا تَظْهَرُ الطَّاعَةُ كَأَثَرٍ لِسُلْطَةٍ رَمْزِيَّةٍ تُشَكِّلُ الوَعْيَ قَبْلَ أَنْ تُوَجِّهَ السُّلُوكَ.

وَمَعَ تَطَوُّرِ التَّفْكِيرِ السِّيَاسِيِّ وَالسُّوسْيُولُوجِيِّ، تَتَّخِذُ الطَّاعَةُ شَكْلًا أَكْثَرَ تَنْظِيمًا، حَيْثُ تُرْبَطُ بِالاقْتِنَاعِ بِمَشْرُوعِيَّةِ السُّلْطَةِ، كَمَا بَيَّنَ مَاكْس فِيبَر، فَتُصْبِحُ الطَّاعَةُ قَائِمَةً عَلَى الاِعْتِقَادِ وَالتَّبْرِيرِ العَقْلِيِّ، لَا عَلَى الخَوْفِ فَقَطْ. غَيْرَ أَنَّ هٰذَا الاِقْتِنَاعَ نَفْسَهُ يَظَلُّ مَشْرُوطًا بِأَنْسَاقٍ مَعْرِفِيَّةٍ وَثَقَافِيَّةٍ تُنْتِجُهُ وَتُدِيرُهُ.

وَيَبْلُغُ التَّحْلِيلُ ذُرْوَتَهُ مَعَ مِيشِيلِ فُوكُو، الَّذِي يُعِيدُ تَفْكِيكَ مَفْهُومِ الطَّاعَةِ مِنْ أَسَاسِهِ، مُبَيِّنًا أَنَّهَا تَتَحَوَّلُ، فِي أَشْكَالِ السُّلْطَةِ الحَدِيثَةِ، إِلَى بِنْيَةٍ دَاخِلِيَّةٍ تُنْتِجُهَا الذَّاتُ نَفْسُهَا عَبْرَ الضَّبْطِ الذَّاتِيِّ وَالتَّطْبِيعِ. فَالطَّاعَةُ لَمْ تَعُدْ فِعْلًا يَتَطَلَّبُ أَمْرًا أَوْ نَهْيًا، بَلْ سُلُوكًا يَوْمِيًّا يُمَارَسُ بِاسْمِ العَقْلِ وَالمِعْيَارِ وَالطَّبِيعَةِ.

وَعَلَيْهِ، يَتَّضِحُ أَنَّ الطَّاعَةَ تَتَدَرَّجُ مِنَ الإِكْرَاهِ إِلَى الاِقْتِنَاعِ، وَمِنْ ثَمَّ إِلَى الاِسْتِبْطَانِ، حَيْثُ تَغْدُو السُّلْطَةُ أَقَلَّ ظُهُورًا وَأَكْثَرَ فَاعِلِيَّةً. وَهٰذَا التَّدَرُّجُ يُمَكِّنُ مِنْ فَهْمِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ بُوصْفِهَا نَتَاجًا لِعَمَلِيَّاتٍ مَعْرِفِيَّةٍ وَخِطَابِيَّةٍ تُدِيرُ السُّلُوكَ «مَا وَرَاءَ القَهْرِ»، وَتُؤَسِّسُ لِنَمَطٍ مِنَ السُّلْطَةِ يَسْكُنُ الذَّاتَ بَدَلَ أَنْ يُوَاجِهَهَا.

وَبِهٰذَا، يُمَثِّلُ هٰذَا المَطْلَبُ أَرْضِيَّةً مَفْهُومِيَّةً ضَرُورِيَّةً لِفَهْمِ تَحَوُّلِ السُّلْطَةِ نَفْسِهَا، وَيُمَهِّدُ لِتَحْلِيلِ آلِيَّاتِ الضَّبْطِ وَالتَّطْبِيعِ الَّتِي سَيَتَنَاوَلُهَا المَطْلَبُ الثَّانِي مِنْ هٰذَا المَبْحَثِ.

**المَطْلَبُ الثَّانِي: تَحَوُّلُ مَفْهُومِ السُّلْطَةِ مِنَ القَهْرِ إِلَى الضَّبْطِ وَالتَّطْبِيعِ:**

يَتَوَقَّفُ فَهْمُ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ عَلَى إِعَادَةِ تَحْدِيدِ مَفْهُومِ السُّلْطَةِ نَفْسِهَا؛ فَالسُّلْطَةُ لَمْ تَعُدْ، فِي التَّحْلِيلِ الفَلْسَفِيِّ الحَدِيثِ، تُفْهَمُ بُوصْفِهَا قُوَّةً قَهْرِيَّةً تُفْرَضُ مِنْ خَارِجٍ، بَلْ أَصْبَحَتْ تُدْرَكُ كَبِنْيَةٍ عَلَاقِيَّةٍ تُنْتِجُ السُّلُوكَ وَتُؤَطِّرُهُ عَبْرَ آلِيَّاتٍ خَفِيَّةٍ تَعْمَلُ فِي مَسْتَوَى المِعْيَارِ وَالعَادَةِ وَالمَعْنَى(Michel Foucault, 1980, p. 98)، وَفِي هٰذَا السِّيَاقِ، يَنْتَقِلُ مَوْضِعُ السُّلْطَةِ مِنَ الجَسَدِ إِلَى الوَعْيِ، وَمِنَ العُنْفِ إِلَى التَّنْظِيمِ، وَمِنَ الأَمْرِ إِلَى التَّطْبِيعِ.

**أَوَّلًا: السُّلْطَةُ القَهْرِيَّةُ وَمَنْطِقُ السَّيْفِ**: تَتَجَلَّى السُّلْطَةُ فِي أَشْكَالِهَا التَّقْلِيدِيَّةِ فِي صُورَةِ سُلْطَةٍ سِيَادِيَّةٍ تُؤَسِّسُ الطَّاعَةَ عَلَى الخَوْفِ مِنَ العِقَابِ، وَتَجْعَلُ الجَسَدَ مَجَالَ إِظْهَارِ القُوَّةِ وَمَوْضِعَ التَّأْدِيبِ. فَالعِقَابُ لَا يُرَادُ بِهِ الزَّجْرُ فَقَطْ، بَلْ إِظْهَارُ السِّيَادَةِ فِي صُورَةٍ عَمُومِيَّةٍ تُذَكِّرُ الرَّعَايَا بِحُضُورِ السُّلْطَةِ وَحَقِّهَا فِي التَّقْيِيدِ وَالعُقُوبَةِ (فوكو، 2004، ص 45–70). وَفِي هٰذَا النَّمُوذَجِ، تَتَشَكَّلُ الطَّاعَةُ كَسُلُوكٍ تَجَنُّبِيٍّ، يَغَايَتُهُ النَّجَاةُ لَا الاقْتِنَاعُ، وَهُوَ مَا يَجْعَلُهَا طَاعَةً مَرْهُونَةً بِحُضُورِ أَدَوَاتِ القَهْرِ.

**ثَانِيًا: مِنَ القَهْرِ إِلَى الضَّبْطِ – تَدْرِيبُ الجَسَدِ وَتَنْظِيمُ السُّلُوكِ:** يَتَحَقَّقُ التَّحَوُّلُ الحَاسِمُ حِينَ تَتَخَلَّى السُّلْطَةُ عَنْ مَنْطِقِ تَدْمِيرِ الجَسَدِ لِصَالِحِ مَنْطِقِ تَدْرِيبِهِ، حَيْثُ لَا يَعُودُ الجَسَدُ مَوْضِعَ العِقَابِ، بَلْ مَوْضِعَ التَّقْنِينِ وَالتَّنْظِيمِ. وَفِي هٰذَا الإِطَارِ، يُبَيِّنُ مِيشِيلُ فُوكُو أَنَّ السُّلْطَةَ الحَدِيثَةَ لَا «تُدَمِّرُ الأَجْسَادَ»، بَلْ «تُدَرِّبُهَا»، وَتُدْخِلُ الأَفْرَادَ فِي شَبَكَةٍ مِنَ القَوَاعِدِ وَالمِعْيَارَاتِ الَّتِي تُنَظِّمُ الزَّمَنَ وَالحَرَكَةَ وَالسُّلُوكَ (فوكو، 2004، ص170–195). وَبِذٰلِكَ تَتَحَوَّلُ الطَّاعَةُ إِلَى جُزْءٍ مِنَ الرُّوتِينِ اليَوْمِيِّ، لَا إِلَى رَدِّ فِعْلٍ عَلَى تَهْدِيدٍ مُبَاشِرٍ.

**ثَالِثًا: التَّطْبِيعُ – السُّلْطَةُ الَّتِي تَتَكَلَّمُ بِلُغَةِ «الطَّبِيعَةِ»:** يَبْلُغُ هٰذَا التَّحَوُّلُ ذُرْوَتَهُ فِي مَفْهُومِ التَّطْبِيعِ، حَيْثُ لَا تَعْمَلُ السُّلْطَةُ بِالأَمْرِ وَالنَّهْيِ، بَلْ بِإِنْتَاجِ مِعْيَارٍ يُقَدَّمُ عَلَى أَنَّهُ «طَبِيعِيٌّ»، وَيُقَاسُ السُّلُوكُ عَلَيْهِ. وَفِي هٰذَا السِّيَاقِ، يُصَنَّفُ كُلُّ خُرُوجٍ عَنِ المِعْيَارِ بُوصْفِهِ شُذُوذًا أَوْ لَا سَوِيَّةً(Michel Foucault, , 1979, pp. 183–194) فَيَغْدُو الاِمْتِثَالُ خِيَارًا يَبْدُو بَدِيهِيًّا، وَتَتَوَارَى السُّلْطَةُ خَلْفَ لُغَةِ الطَّبِيعَةِ وَالمَعْقُولِيَّةِ.

**رَابِعًا: الضَّبْطُ الذَّاتِيُّ – اكْتِمَالُ السُّلْطَةِ الغَيْرِ القَهْرِيَّةِ:** يُفْضِي التَّطْبِيعُ إِلَى تَشَكُّلِ الضَّبْطِ الذَّاتِيِّ، حَيْثُ يُصْبِحُ الفَرْدُ رَقِيبًا عَلَى نَفْسِهِ، وَيُقَوِّمُ سُلُوكَهُ وَفْقَ مَعَايِيرَ سَبَقَ أَنْ تَشَكَّلَتْ فِي وَعْيِهِ. وَيُعَبِّرُ فُوكُو عَنْ هٰذَا الاِكْتِمَالِ لِلسُّلْطَةِ بِقَوْلِهِ إِنَّهَا «تُنْتِجُ ذَوَاتٍ»

قَادِرَةً عَلَى تَسْيِيرِ نَفْسِهَا دُونَ تَدَخُّلٍ مُبَاشِرٍ(Michel Foucault, p. 98.) ، وَهُنَا تَتَجَلَّى الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ فِي أَكْثَرِ صُوَرِهَا خُفُوتًا وَفَاعِلِيَّةً.

**خُلَاصَةُ المَطْلَبِ الثَّانِي:**

يُفْضِي تَتَبُّعُ تَحَوُّلِ مَفْهُومِ السُّلْطَةِ مِنَ القَهْرِ إِلَى الضَّبْطِ وَالتَّطْبِيعِ إِلَى تَبَيُّنِ أَنَّ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ لَا تَنْشَأُ فَجْأَةً، وَلَا تُمَثِّلُ قَطِيعَةً مَعَ السُّلْطَةِ، بَلْ هِيَ نَتِيجَةُ تَطَوُّرٍ فِي آلِيَّاتِهَا وَأَدَوَاتِهَا. فَالسُّلْطَةُ الَّتِي كَانَتْ تُؤَسِّسُ شَرْعِيَّتَهَا عَلَى العُنْفِ وَالعِقَابِ العَلَنِيِّ، وَتُرْهِبُ الأَجْسَادَ لِضَمَانِ الِامْتِثَالِ، تَبَيَّنَ عَجْزُهَا عَنْ تَحْقِيقِ طَاعَةٍ مُسْتَقِرَّةٍ وَمُنْخَفِضَةِ الكُلْفَةِ.

وَمَعَ تَطَوُّرِ أَشْكَالِ التَّنْظِيمِ الِاجْتِمَاعِيِّ، اِنْتَقَلَتِ السُّلْطَةُ مِنْ مَنْطِقِ القَهْرِ السِّيَادِيِّ إِلَى مَنْطِقِ الضَّبْطِ الِانْضِبَاطِيِّ، حَيْثُ لَمْ يَعُدِ الجَسَدُ مَوْضِعَ إِظْهَارِ العُقُوبَةِ، بَلْ مَوْضِعَ التَّقْنِينِ وَالتَّنْظِيمِ. وَهُنَا تُنْتَجُ الطَّاعَةُ عَبْرَ تَقْسِيمِ الزَّمَنِ، وَتَنْظِيمِ الفَضَاءِ، وَتَقْيِيدِ الحَرَكَةِ، حَتَّى يَغْدُو الِامْتِثَالُ جُزْءًا مِنَ الرُّوتِينِ اليَوْمِيِّ، لَا رَدَّ فِعْلٍ عَلَى تَهْدِيدٍ مُبَاشِرٍ.

وَيَبْلُغُ هٰذَا التَّحَوُّلُ أَقْصَى دَرَجَاتِهِ فِي مَرْحَلَةِ التَّطْبِيعِ، حَيْثُ تَعْمَلُ السُّلْطَةُ عَلَى إِنْتَاجِ مِعْيَارٍ يُقَدَّمُ عَلَى أَنَّهُ «طَبِيعِيٌّ» أَوْ «مَعْقُولٌ»، وَتُقَاسُ السُّلُوكَاتُ عَلَيْهِ دُونَ حَاجَةٍ إِلَى أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ صَرِيحٍ. وَفِي هٰذَا السِّيَاقِ، لَا يَشْعُرُ الفَرْدُ بِأَنَّهُ خَاضِعٌ لِلسُّلْطَةِ، بَلْ يَرَى نَفْسَهُ مُنْسَجِمًا مَعَ «مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ».

وَإِذْ يَكْتَمِلُ هٰذَا المَسَارُ، تَتَشَكَّلُ آلِيَّةُ الضَّبْطِ الذَّاتِيِّ، حَيْثُ يُصْبِحُ الفَرْدُ رَقِيبًا عَلَى نَفْسِهِ، وَيُدِيرُ سُلُوكَهُ وَفْقَ مَعَايِيرَ تَشَكَّلَتْ سَابِقًا فِي وَعْيِهِ. وَهُنَا تَغْدُو الطَّاعَةُ أَكْثَرَ خُفُوتًا وَأَشَدَّ فَاعِلِيَّةً، لِأَنَّهَا لَا تُفْرَضُ مِنْ خَارِجٍ، بَلْ تُنْتَجُ مِنْ دَاخِلِ الذَّاتِ نَفْسِهَا.

وَعَلَيْهِ، يَتَبَيَّنُ أَنَّ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ لَا تَعْنِي غِيَابَ السُّلْطَةِ، بَلْ تَعْنِي تَحَوُّلَهَا مِنْ سُلْطَةٍ تَظْهَرُ فِي القَهْرِ إِلَى سُلْطَةٍ تَعْمَلُ فِي الصَّمْتِ، وَمِنْ سُلْطَةٍ تُجَابَهُ إِلَى سُلْطَةٍ تُسْتَبْطَنُ. وَبِذٰلِكَ تُشَكِّلُ هٰذِهِ الخُلَاصَةُ مَدْخَلًا مَنْهَجِيًّا لِفَهْمِ آلِيَّاتِ إِنْتَاجِ الطَّاعَةِ فِي سِيَاقَاتٍ فِكْرِيَّةٍ وَتَارِيخِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَتُمَهِّدُ لِتَطْبِيقِ هٰذَا الإِطَارِ عَلَى نُصُوصِ الجَاحِظِ فِي المَبْحَثِ التَّالِي.

**المَطْلَبُ الثَّالِثُ: الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ بُوصْفِهَا بِنْيَةً مَعْرِفِيَّةً وَخِطَابِيَّةً:**

لَا يَكْتَمِلُ فَهْمُ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ إِلَّا إِذَا أُعِيدَ تَحْدِيدُهَا بُوصْفِهَا بِنْيَةً مَعْرِفِيَّةً وَخِطَابِيَّةً، لَا مُجَرَّدَ سُلُوكٍ فَرْدِيٍّ أَوْ خِيَارٍ نَفْسِيٍّ مَعْزُولٍ. فَالطَّاعَةُ، فِي أَشْكَالِهَا الحَدِيثَةِ، تُنْتَجُ عَبْرَ أَنْسَاقٍ مِنَ المَعْرِفَةِ وَالخِطَابِ تُؤَطِّرُ الوَعْيَ، وَتُعِيدُ تَشْكِيلَ مَا يُعَدُّ «مَعْقُولًا» وَ«مَشْرُوعًا»، وَتُحَوِّلُ الِامْتِثَالَ إِلَى نَتِيجَةٍ بَدِيهِيَّةٍ لِمَا يُقَدَّمُ عَلَى أَنَّهُ حَقِيقَةٌ أَوْ ضَرُورَةٌ.

**أَوَّلًا: الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ كَبِنْيَةٍ مَعْرِفِيَّةٍ:** يَرْتَبِطُ إِنْتَاجُ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ، فِي بُعْدِهِ المَعْرِفِيِّ، بِالكَيْفِيَّةِ الَّتِي تُنْتَجُ بِهَا الحَقَائِقُ وَتُؤَطَّرُ المَعَانِي دَاخِلَ نُظُمٍ مَعْرِفِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ. فَالسُّلْطَةُ لَا تَعْمَلُ عِنْدَ فُوكُو عَلَى قَمْعِ المَعْرِفَةِ، بَلْ عَلَى إِنْتَاجِهَا وَتَنْظِيمِهَا، كَمَا يَقُولُ: «لَيْسَتِ السُّلْطَةُ شَيْئًا يُمْتَلَكُ، بَلْ هِيَ شَبَكَةٌ مِنَ العَلَاقَاتِ تَمُرُّ عَبْرَ المَعْرِفَةِ، وَتُنْتِجُهَا فِي الآنِ نَفْسِهِ».( Foucault, 1980, p. 98)

فِي ضَوْءِ هٰذَا التَّصَوُّرِ، لَا تَنْشَأُ الطَّاعَةُ مِنْ أَمْرٍ صَرِيحٍ، بَلْ مِنْ إِطَارٍ مَعْرِفِيٍّ يَجْعَلُ بَعْضَ الأَفْعَالِ مَعْقُولَةً وَمُتَّسِقَةً مَعَ «نِظَامِ الحَقِيقَةِ» السَّائِدِ، وَيُقْصِي فِي المُقَابِلِ أَشْكَالًا أُخْرَى بُوصْفِهَا لَا عَقْلَانِيَّةً أَوْ غَيْرَ مُمْكِنَةٍ.

**ثَانِيًا: الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ كَبِنْيَةٍ خِطَابِيَّةٍ:** إِذَا كَانَتِ المَعْرِفَةُ تُؤَسِّسُ الإِطَارَ الذِّهْنِيَّ لِلطَّاعَةِ، فَإِنَّ الخِطَابَ يُؤَدِّي وَظِيفَةً حَاسِمَةً فِي تَرْسِيخِهَا وَتَطْبِيعِهَا. فَالخِطَابُ لَا يُعَبِّرُ عَنِ السُّلْطَةِ فَقَطْ، بَلْ يَعْمَلُ عَلَى إِنْتَاجِ الذَّاتِ الَّتِي تَفْهَمُ وَتُقَيِّمُ وَتُطِيعُ. وَفِي هٰذَا السِّيَاقِ يَقُولُ فُوكُو: «إِنَّ الخِطَابَ لَا يَكُونُ مَجَرَّدَ وَسِيلَةٍ لِنَقْلِ السُّلْطَةِ، بَلْ هُوَ أَحَدُ أَشْكَالِ مُمَارَسَتِهَا».( Foucault, 2002, p. 49.)

وَبِذٰلِكَ تُنْتَجُ الطَّاعَةُ خِطَابِيًّا عَبْرَ لُغَةِ العَقْلِ، وَالنِّظَامِ، وَالأَمْنِ، وَالمَصْلَحَةِ، حَيْثُ يُعَادُ تَأْطِيرُ الِامْتِثَالِ فِي صُورَةِ سُلُوكٍ رَشِيدٍ، وَيُقَدَّمُ رَفْضُهُ فِي صُورَةِ خُرُوجٍ عَنِ المَعْقُولِ أَوِ المُسْتَقِرِّ.

**ثَالِثًا: الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ وَإِنْتَاجُ الذَّاتِ المُنْضَبِطَةِ:** تَبْلُغُ الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ أَقْصَى مَرَاتِبِهَا حِينَ تَسْتَقِرُّ فِي بِنْيَةِ الذَّاتِ نَفْسِهَا، فَيُصْبِحُ الفَرْدُ فَاعِلًا فِي إِنْفَاذِ السُّلْطَةِ عَلَى نَفْسِهِ. وَفِي هٰذَا الإِطَارِ يُؤَكِّدُ فُوكُو: «يُصْبِحُ الفَرْدُ مَبْدَأَ خُضُوعِهِ نَفْسِهِ، حِينَ يَتَوَلَّى مُمَارَسَةَ السُّلْطَةِ عَلَى ذَاتِهِ».( Foucault, 1979, p. 202)

هُنَا تَغْدُو الطَّاعَةُ لَا فِعْلًا يُفْرَضُ مِنْ خَارِجٍ، بَلْ نَمَطَ وُجُودٍ يَتَشَكَّلُ دَاخِلَ الذَّاتِ، وَتَتَحَوَّلُ السُّلْطَةُ إِلَى آلِيَّةٍ صَامِتَةٍ تَعْمَلُ فِي أَعْمَاقِ الوَعْيِ وَالهُوِيَّةِ، وَتُؤَمِّنُ أَقْصَى دَرَجَاتِ الِامْتِثَالِ بِأَدْنَى قَدْرٍ مِنَ القَهْرِ الظَّاهِرِ.

**خُلَاصَةُ المَطْلَبِ الثَّالِثِ:**

يَتَبَيَّنُ مِنْ تَحْلِيلِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ بُوصْفِهَا بِنْيَةً مَعْرِفِيَّةً وَخِطَابِيَّةً أَنَّهَا لَا تَنْحَصِرُ فِي مَجَالِ السُّلُوكِ الفَرْدِيِّ أَوِ الِاخْتِيَارِ الذَّاتِيِّ، بَلْ تَنْتَظِمُ فِي شَبَكَةٍ أَعْمَقَ مِنَ الأَنْسَاقِ المَعْرِفِيَّةِ وَالخِطَابِيَّةِ الَّتِي تُؤَطِّرُ الوَعْيَ وَتُعِيدُ تَشْكِيلَ مَا يُعَدُّ مُمْكِنًا وَمَشْرُوعًا وَمَعْقُولًا. فَالطَّاعَةُ، فِي هٰذَا المُنْظُورِ، لَا تُنْتَجُ عَبْرَ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ، بَلْ عَبْرَ إِنْتَاجِ مَعَانٍ وَتَصَوُّرَاتٍ تُحَوِّلُ الِامْتِثَالَ إِلَى نَتِيجَةٍ بَدِيهِيَّةٍ لِمَا يُقَدَّمُ عَلَى أَنَّهُ حَقِيقَةٌ أَوْ ضَرُورَةٌ.

وَيُظْهِرُ البُعْدُ المَعْرِفِيُّ لِلطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ أَنَّ السُّلْطَةَ تَعْمَلُ عَلَى إِنْتَاجِ أُطُرٍ ذِهْنِيَّةٍ تُحَدِّدُ سَلَفًا أُفُقَ التَّفْكِيرِ وَمَجَالَ الِاخْتِيَارِ، بِحَيْثُ يَبْدُو بَعْضُ السُّلُوكِ «مَعْقُولًا» أَوْ «رَشِيدًا»، فِيمَا يُقْصَى غَيْرُهُ بُوصْفِهِ خُرُوجًا عَنِ النِّظَامِ أَوْ تَهْدِيدًا لِلِاسْتِقْرَارِ. وَفِي هٰذَا الإِطَارِ، لَا تَكُونُ الطَّاعَةُ تَعْبِيرًا عَنْ خُضُوعٍ مَفْرُوضٍ، بَلْ عَنْ تَمَاهٍ مَعَ «نِظَامِ الحَقِيقَةِ» السَّائِدِ.

أَمَّا الْبُعْدُ الخِطَابِيُّ، فَيُبَيِّنُ أَنَّ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ تُرَسَّخُ عَبْرَ لُغَةٍ تُعِيدُ تَأْطِيرَ السُّلُوكِ فِي صُورَةِ العَقْلَانِيَّةِ وَالمَصْلَحَةِ وَالطَّبِيعَةِ، حَيْثُ لَا يُقَدَّمُ الامْتِثَالُ كَفِعْلِ خُضُوعٍ، بَلْ كَخِيَارٍ رَشِيدٍ أَوْ سُلُوكٍ سَوِيٍّ. وَبِهٰذَا، لَا يَعُودُ الخِطَابُ وَسِيلَةً لِنَقْلِ السُّلْطَةِ فَقَطْ، بَلْ أَدَاةً لِإِنْتَاجِ الذَّاتِ الَّتِي تَفْهَمُ وَتُقَيِّمُ وَتُطِيعُ فِي آنٍ وَاحِدٍ.

وَيَكْتَمِلُ هٰذَا المَسَارُ فِي لَحْظَةِ الضَّبْطِ الذَّاتِيِّ، حَيْثُ تُسْتَبْطَنُ السُّلْطَةُ دَاخِلَ الذَّاتِ نَفْسِهَا، فَيُصْبِحُ الفَرْدُ فَاعِلًا فِي تَنْفِيذِ مَعَايِيرِهَا عَلَى نَفْسِهِ، دُونَ حَاجَةٍ إِلَى رَقَابَةٍ خَارِجِيَّةٍ دَائِمَةٍ. وَهُنَا تَبْلُغُ الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ أَقْصَى دَرَجَاتِ فَاعِلِيَّتِهَا، لِأَنَّهَا تَعْمَلُ فِي مَسْتَوَى الهُوِيَّةِ وَتَصَوُّرِ الذَّاتِ، لَا فِي مَسْتَوَى السُّلُوكِ الظَّاهِرِ فَقَطْ.

وَعَلَيْهِ، تَكْشِفُ هٰذِهِ الخُلَاصَةُ أَنَّ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ لَا تَدُلُّ عَلَى غِيَابِ السُّلْطَةِ، بَلْ عَلَى تَحَوُّلِهَا إِلَى نَمَطٍ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا وَخُفُوتًا، نَمَطٍ يَعْمَلُ عَبْرَ المَعْرِفَةِ وَالخِطَابِ وَإِنْتَاجِ الذَّاتِ، وَهُوَ مَا يُمَهِّدُ مُنْهَجِيًّا لِلِانْتِقَالِ إِلَى تَحْلِيلِ هٰذِهِ الآلِيَّاتِ فِي فِكْرِ الجَاحِظِ، بُوصْفِهِ نَمُوذَجًا مُبَكِّرًا لِسُلْطَةِ البَيَانِ وَالعَادَةِ وَالتَّطْبِيعِ الثَّقَافِيِّ.

**خُلَاصَةُ المَبْحَثِ الأَوَّلِ:**

يُفْضِي هٰذَا المَبْحَثُ، فِي مَسَارِهِ التَّحْلِيلِيِّ، إِلَى تَفْكِيكِ التَّصَوُّرِ التَّقْلِيدِيِّ لِلطَّاعَةِ بُوصْفِهَا فِعْلًا نَاتِجًا عَنِ الإِكْرَاهِ أَوِ العُنْفِ المُبَاشِرِ، وَيُعِيدُ بِنَاءَهَا فِي إِطَارٍ مَفْهُومِيٍّ أَعْمَقَ، يَكْشِفُ أَنَّهَا نَتِيجَةُ تَحَوُّلٍ فِي بِنْيَةِ السُّلْطَةِ نَفْسِهَا، وَفِي آلِيَّاتِ عَمَلِهَا وَطُرُقِ فَاعِلِيَّتِهَا. فَالطَّاعَةُ لَا تُفْهَمُ هُنَا كَرَدِّ فِعْلٍ عَلَى قَهْرٍ خَارِجِيٍّ، بَلْ كَمَحْصِلَةٍ لِسُلْطَةٍ تَعْمَلُ عَلَى إِنْتَاجِ الامْتِثَالِ مِنْ دَاخِلِ الذَّاتِ، وَتَجْعَلُهُ يَبْدُو اخْتِيَارًا أَوْ قَنَاعَةً أَوْ بَدَاهَةً.

وَقَدْ أَظْهَرَ تَحْلِيلُ المَطْلَبِ الأَوَّلِ أَنَّ الطَّاعَةَ تَتَحَرَّكُ فِي مَجَالٍ وَسِيطٍ بَيْنَ الإِكْرَاهِ وَالإِقْتِنَاعِ، حَيْثُ لَا يَكْفِي العُنْفُ لِتَفْسِيرِ الامْتِثَالِ، كَمَا لَا يُمْكِنُ الِاكْتِفَاءُ بِفِكْرَةِ الرِّضَا الحُرِّ. وَفِي هٰذَا السِّيَاقِ تَبَيَّنَ أَنَّ الطَّاعَةَ تَتَشَكَّلُ عَبْرَ آلِيَّاتٍ تَتَدَرَّجُ مِنَ التَّهْدِيدِ إِلَى الإِقْنَاعِ، وَمِنَ الخَوْفِ إِلَى التَّطْبِيعِ، وَمِنَ الأَمْرِ إِلَى العَادَةِ.

أَمَّا المَطْلَبُ الثَّانِي فَقَدْ كَشَفَ عَنِ التَّحَوُّلِ التَّارِيخِيِّ فِي مَفْهُومِ السُّلْطَةِ، مِنْ سُلْطَةٍ قَهْرِيَّةٍ تُؤَدِّبُ الأَجْسَادَ وَتُظْهِرُ سِيَادَتَهَا فِي مَشَاهِدِ العِقَابِ، إِلَى سُلْطَةٍ ضَبْطِيَّةٍ تُنَظِّمُ الزَّمَنَ وَالفَضَاءَ وَالحَرَكَةَ، ثُمَّ إِلَى سُلْطَةٍ تَطْبِيعِيَّةٍ تَعْمَلُ فِي مَسْتَوَى المِعْيَارِ وَالعَادَةِ وَالمَعْنَى. وَفِي هٰذَا المَسَارِ، تَغْدُو الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ نَتِيجَةً مَنْطِقِيَّةً لِسُلْطَةٍ لَا تُفْرَضُ، بَلْ تُنْتِجُ مَوْضُوعَهَا وَتُشَكِّلُهُ.

وَجَاءَ المَطْلَبُ الثَّالِثُ لِيُعَمِّقَ هٰذَا التَّحْلِيلَ مِنْ خِلَالِ النَّظَرِ إِلَى الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ بُوصْفِهَا بِنْيَةً مَعْرِفِيَّةً وَخِطَابِيَّةً، تَتَشَكَّلُ عَبْرَ أَنْسَاقِ الحَقِيقَةِ وَآلِيَّاتِ الخِطَابِ الَّتِي تُؤَطِّرُ الوَعْيَ وَتُحَدِّدُ مَا يُعَدُّ مُمْكِنًا وَمَعْقُولًا وَمَشْرُوعًا. وَفِي هٰذَا الإِطَارِ، لَا تَعُودُ الطَّاعَةُ مُجَرَّدَ فِعْلٍ سُلُوكِيٍّ، بَلْ نَمَطَ وُجُودٍ يَتَجَذَّرُ فِي بِنْيَةِ الذَّاتِ وَتَصَوُّرِهَا لِنَفْسِهَا وَلِلْعَالَمِ.

وَعَلَيْهِ، يُؤَسِّسُ هٰذَا المَبْحَثُ إِطَارًا نَظَرِيًّا وَمَفْهُومِيًّا يُمَكِّنُ مِنْ فَهْمِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ لَا بُوصْفِهَا غِيَابًا لِلسُّلْطَةِ، بَلْ بُوصْفِهَا أَحَدَ أَكْثَرِ أَشْكَالِهَا تَعْقِيدًا وَنَفَاذًا. وَبِهٰذَا تُمَهِّدُ خُلَاصَةُ المَبْحَثِ الأَوَّلِ لِلِانْتِقَالِ إِلَى المَبْحَثِ الثَّانِي، الَّذِي سَيُخَصَّصُ لِتَحْلِيلِ آلِيَّاتِ إِنْتَاجِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ فِي فِكْرِ الجَاحِظِ، بُوصْفِهِ نَمُوذَجًا مُبَكِّرًا لِسُلْطَةِ البَيَانِ وَالعَادَةِ وَالتَّطْبِيعِ الثَّقَافِيِّ.

**المَبْحَثُ الثَّانِي: آلِيَّاتُ إِنْتَاجِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ فِي فِكْرِ الجَاحِظِ**

**المَطْلَبُ الأَوَّلُ: سُلْطَةُ البَيَانِ وَالإِقْنَاعِ فِي تَوْجِيهِ السُّلُوكِ:**

يَحْتَلُّ البَيَانُ فِي مَشْرُوعِ الجَاحِظِ مَكَانَةً مَرْكَزِيَّةً لَا تَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ البَلَاغَةِ، بَلْ تَتَجَاوَزُهَا إِلَى كَوْنِهِ آلِيَّةً مَعْرِفِيَّةً وَسُلْطَوِيَّةً نَاعِمَةً تُؤَثِّرُ فِي تَشَكُّلِ الوَعْيِ وَتَوْجِيهِ السُّلُوكِ. فَالطَّاعَةُ، عِنْدَ الجَاحِظِ، لَا تُفْرَضُ بِالأَمْرِ وَالنَّهْيِ، بَلْ تُنْتَجُ عَبْرَ الإِفْهَامِ وَالإِقْنَاعِ، حَيْثُ يَتَحَوَّلُ الامْتِثَالُ إِلَى نَتِيجَةٍ لِفَهْمٍ مُسْتَبْطَنٍ، لَا لِخَوْفٍ مُؤَقَّتٍ.

وَيُصَرِّحُ الجَاحِظُ بِهٰذَا التَّوَجُّهِ حِينَ يَرْبِطُ فَعَالِيَّةَ الخِطَابِ بِقُدْرَتِهِ عَلَى الإِفْهَامِ، فَيَقُولُ: «وَإِنَّمَا مَدَارُ الأَمْرِ عَلَى الإِفْهَامِ وَالإِقْنَاعِ، لَا عَلَى الإِكْرَاهِ وَالقَهْرِ».(الجاحظ، البيان والتبيين 1998، ج1، ص 76)

فِي ضَوْءِ هٰذَا النَّصِّ، تَتَحَوَّلُ السُّلْطَةُ مِنْ قُوَّةٍ تُوَاجِهُ الجَسَدَ إِلَى قُوَّةٍ تَعْمَلُ فِي مَسْتَوَى العَقْلِ وَالمَعْنَى؛ إِذْ إِنَّ الإِقْنَاعَ يُؤَسِّسُ طَاعَةً أَثْبَتَ، لِأَنَّهَا تَتَجَذَّرُ فِي التَّصَوُّرِ وَالذَّائِقَةِ.

وَيُعَمِّقُ الجَاحِظُ هٰذَا الفَهْمَ حِينَ يَفْصِلُ بَيْنَ المَعْنَى وَطَرِيقَةِ تَقْدِيمِهِ، مُؤَكِّدًا أَنَّ التَّأْثِيرَ لَا يَنْشَأُ مِنَ المَضْمُونِ وَحْدَهُ، بَلْ مِنْ صِيَاغَتِهِ البَيَانِيَّةِ، فَيَقُولُ: «المَعَانِي مَطْرُوحَةٌ فِي الطَّرِيقِ، يَعْرِفُهَا العَرَبِيُّ وَالعَجَمِيُّ، وَإِنَّمَا الشَّأْنُ فِي إِقَامَةِ الوَزْنِ، وَتَخَيُّرِ اللَّفْظِ، وَسُهُولَةِ المَخْرَجِ».(الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 89)

يُفِيدُ هٰذَا التَّصَوُّرُ أَنَّ السُّلْطَةَ البَيَانِيَّةَ تَعْمَلُ عَلَى تَطْبِيعِ المَعْنَى مِنْ خِلَالِ تَجْمِيلِهِ وَتَقْرِيبِهِ إِلَى الذَّائِقَةِ، حَتَّى يَغْدُو مَقْبُولًا وَمُسْتَسَاغًا، وَمِنْ ثَمَّ مَوْضُوعًا لِلامْتِثَالِ. وَهُنَا تَتَجَلَّى الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ كَأَثَرٍ لِخِطَابٍ يُقْنِعُ قَبْلَ أَنْ يُلْزِمَ.

وَيُدْرِكُ الجَاحِظُ أَنَّ تَوْجِيهَ السُّلُوكِ يَمُرُّ عَبْرَ تَشْكِيلِ العُرْفِ وَالذَّائِقَةِ، لَا عَبْرَ القَهْرِ؛ فَالسُّلُوكُ الإِنْسَانِيُّ يَنْقَادُ لِمَا يَأْلَفُهُ وَيَرَاهُ مُتَّسِقًا مَعَ مَا يُقَدَّمُ لَهُ بُوصْفِهِ عَقْلًا وَحِكْمَةً. وَبِذٰلِكَ تُنْتِجُ سُلْطَةُ البَيَانِ نَمَطًا مِنَ الامْتِثَالِ يَظْهَرُ فِي صُورَةِ قَنَاعَةٍ، فِيمَا يَتَوَارَى بُعْدُ السُّلْطَةِ خَلْفَ لُغَةِ الإِقْنَاعِ وَالتَّفَاهُمِ.

وَعَلَيْهِ، يُمْكِنُ القَوْلُ إِنَّ الجَاحِظَ يُؤَسِّسُ، مِنْ خِلَالِ نَظَرِيَّتِهِ فِي البَيَانِ، لِنَمُوذَجٍ مُبَكِّرٍ لِسُلْطَةٍ نَاعِمَةٍ تُوَجِّهُ السُّلُوكَ عَبْرَ الإِقْنَاعِ وَتَشْكِيلِ الذَّائِقَةِ، وَتُحَقِّقُ الطَّاعَةَ بِغَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى الإِكْرَاهِ الظَّاهِرِ، وَهُوَ مَا يَفْتَحُ أُفُقَ المُقَارَنَةِ المَنْهَجِيَّةِ مَعَ التَّحْلِيلَاتِ الحَدِيثَةِ لِلسُّلْطَةِ وَالطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ.

**خُلَاصَةُ المَطْلَبِ الأَوَّلِ من المبحث الثاني:**

يُظْهِرُ تَحْلِيلُ سُلْطَةِ البَيَانِ وَالإِقْنَاعِ فِي فِكْرِ الجَاحِظِ أَنَّ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ لَا تُؤَسَّسُ عَلَى الإِكْرَاهِ وَالقَهْرِ، بَلْ تُنْتَجُ عَبْرَ آلِيَّةٍ خِطَابِيَّةٍ تَعْمَلُ فِي مَسْتَوَى العَقْلِ وَالذَّائِقَةِ وَالعُرْفِ. فَالْبَيَانُ، عِنْدَ الجَاحِظِ، لَا يُمَثِّلُ أُسْلُوبًا بَلَاغِيًّا فَقَطْ، بَلْ يُؤَدِّي وَظِيفَةً مَعْرِفِيَّةً تُشَكِّلُ الوَعْيَ وَتُوَجِّهُ الاِخْتِيَارَ، وَتَجْعَلُ الامْتِثَالَ نَتِيجَةً لِلإِفْهَامِ وَالاِقْتِنَاعِ لَا لِلخَوْفِ.

وَيَتَبَيَّنُ، فِي ضَوْءِ نُصُوصِ الجَاحِظِ، أَنَّ فَاعِلِيَّةَ السُّلْطَةِ تَتَحَقَّقُ كُلَّمَا اِنْتَقَلَتْ مِنْ فَرْضِ السُّلُوكِ إِلَى تَشْكِيلِ المَعْنَى الَّذِي يُوَجِّهُهُ. فَالتَّأْثِيرُ لَا يَنْشَأُ مِنَ المَضْمُونِ وَحْدَهُ، بَلْ مِنْ طَرِيقَةِ صِيَاغَتِهِ وَتَقْدِيمِهِ، حَيْثُ يُسْهِمُ تَخَيُّرُ اللَّفْظِ وَإِقَامَةُ الوَزْنِ فِي تَطْبِيعِ المَعَانِي وَجَعْلِهَا مَقْبُولَةً وَمُسْتَسَاغَةً.

وَبِهٰذَا، تَتَحَوَّلُ الطَّاعَةُ، فِي مَشْرُوعِ الجَاحِظِ، مِنْ فِعْلِ خُضُوعٍ مَفْرُوضٍ إِلَى مُمَارَسَةٍ طَوْعِيَّةٍ نَاتِجَةٍ عَنْ اقْتِنَاعٍ تَشَكَّلَ بَيَانِيًّا وَثَقَافِيًّا. وَهُنَا تَتَجَلَّى سُلْطَةُ البَيَانِ كَسُلْطَةٍ نَاعِمَةٍ تَعْمَلُ فِي الصَّمْتِ، وَتُؤَمِّنُ الاِمْتِثَالَ بِغَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى القَهْرِ الظَّاهِرِ، وَهُوَ مَا يَجْعَلُ فِكْرَ الجَاحِظِ مُؤَهِّلًا لِلمُقَارَنَةِ المَنْهَجِيَّةِ مَعَ التَّحْلِيلَاتِ الحَدِيثَةِ لِلسُّلْطَةِ وَالطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ.

**المَطْلَبُ الثَّانِي من المبحث الثاني: العَادَةُ وَالتَّطْبِيعُ الثَّقَافِيُّ كَآلِيَّتَيْ ضَبْطٍ صَامِتَتَيْنِ:**

يَكْشِفُ فِكْرُ الجَاحِظِ عَنْ بُعْدٍ دَقِيقٍ فِي عَمَلِ السُّلْطَةِ، لَا يَتَّكِئُ عَلَى الأَمْرِ وَالنَّهْيِ، بَلْ يَعْمَلُ فِي مَسْتَوَى أَعْمَقَ، هُوَ مُسْتَوَى العَادَةِ وَالتَّطْبِيعِ الثَّقَافِيِّ. فَالطَّاعَةُ، فِي هٰذَا الإِطَارِ، لَا تُفْرَضُ بِالقَهْرِ، بَلْ تُنْتَجُ مِنْ خِلَالِ تَكْرَارِ السُّلُوكِ وَتَرْسِيخِهِ، حَتَّى يَغْدُو جُزْءًا مِنَ الطَّبِيعَةِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ، وَيُفَارِقُ وَصْفَ «الاخْتِيَارِ» إِلَى وَصْفِ «المَأْلُوفِ».

**أَوَّلًا: العَادَةُ بُوصْفِهَا مِصْدَرًا لِلامْتِثَالِ الصَّامِتِ**: يُقِيمُ الجَاحِظُ لِلْعَادَةِ وَزْنًا كَبِيرًا فِي تَفْسِيرِ السُّلُوكِ الإِنْسَانِيِّ، وَيَرَى أَنَّهَا أَشَدُّ تَأْثِيرًا مِنَ الحُجَّةِ المُجَرَّدَةِ، لِأَنَّهَا تَعْمَلُ فِي النَّفْسِ دُونَ أَنْ تَسْتَدْعِيَ وَعْيًا نَقْدِيًّا مُسْتَمِرًّا. وَيُصَرِّحُ بِذٰلِكَ حِينَ يَقُولُ: «وَالنَّاسُ أَبْنَاءُ مَا اعْتَادُوا، وَإِنَّمَا يُنْكِرُونَ مَا خَالَفَ عَادَاتِهِمْ».(الجاحظ، 1996، ج1، ص 56)

فِي هٰذَا النَّصِّ، تَتَجَلَّى العَادَةُ كَسُلْطَةٍ غَيْرِ مَرْئِيَّةٍ، تُحَدِّدُ مَا يُقْبَلُ وَمَا يُرْفَضُ، وَتَجْعَلُ الامْتِثَالَ نَتِيجَةً لِلأُلْفَةِ لَا لِلقَنَاعَةِ العَقْلِيَّةِ. وَهُنَا تَتَحَوَّلُ الطَّاعَةُ إِلَى سُلُوكٍ يُمَارَسُ دُونَ شُعُورٍ بِالخُضُوعِ، لِأَنَّهُ مُتَّسِقٌ مَعَ مَا «يَنْبَغِي» فِي عُرْفِ الجَمَاعَةِ.

**ثَانِيًا: التَّطْبِيعُ الثَّقَافِيُّ وَتَحْوِيلُ السُّلُوكِ إِلَى مِعْيَارٍ:** لَا تَقِفُ السُّلْطَةُ عِنْدَ حَدِّ إِنْتَاجِ العَادَةِ، بَلْ تَتَجَاوَزُهَا إِلَى تَطْبِيعِهَا، أَيْ تَقْدِيمِهَا بُوصْفِهَا سُلُوكًا «طَبِيعِيًّا» وَ«مَعْقُولًا»، لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَبْرِيرٍ. وَيَنْتَبِهُ الجَاحِظُ إِلَى خُطُورَةِ هٰذَا المَسَارِ، خَاصَّةً حِينَ تَتَحَوَّلُ المَوَارِيثُ وَالأَعْرَافُ إِلَى مَعَايِيرَ لِلحَقِّ وَالصَّوَابِ، فَيَقُولُ: «رُبَّ شَيْءٍ قُبِلَ لِقِدَمِهِ، وَلَوْ نُظِرَ فِيهِ لَمْ يُقْبَلْ».(الجاحظ، 1998، ج1، ص 101)

يُفِيدُ هٰذَا القَوْلُ أَنَّ التَّطْبِيعَ يُلْغِي المَسَافَةَ النَّقْدِيَّةَ بَيْنَ السُّلُوكِ وَمَعْنَاهُ؛ فَيُقْبَلُ الفِعْلُ لِأَنَّهُ «هَكَذَا كَانَ دَائِمًا»، لَا لِأَنَّهُ صَحِيحٌ أَوْ عَادِلٌ. وَهُنَا تَعْمَلُ السُّلْطَةُ فِي أَخْطَرِ صُوَرِهَا: سُلْطَةٌ تَتَوَارَى خَلْفَ التَّقْلِيدِ وَالاِسْتِمْرَارِ.

**ثَالِثًا: العَادَةُ وَالتَّطْبِيعُ كَضَبْطٍ صَامِتٍ لِلذَّاتِ:** إِذْ تَجْتَمِعُ العَادَةُ وَالتَّطْبِيعُ، يَنْشَأُ نَمَطٌ مِنَ الضَّبْطِ الصَّامِتِ، حَيْثُ يُمَارِسُ الفَرْدُ الرَّقَابَةَ عَلَى نَفْسِهِ، لَا خَوْفًا مِنْ عُقُوبَةٍ، بَلْ خَشْيَةَ الخُرُوجِ عَنِ المَأْلُوفِ أَوِ الاِتِّهَامِ بِالشُّذُوذِ. وَهُنَا تُنْتَجُ الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ فِي صُورَةِ اِنْضِبَاطٍ ذَاتِيٍّ تَفْرِضُهُ الثَّقَافَةُ قَبْلَ أَنْ تَفْرِضَهُ السُّلْطَةُ السِّيَاسِيَّةُ.

وَيَتَّضِحُ أَنَّ نَقْدَ الجَاحِظِ لِلْعَادَةِ وَالتَّقْلِيدِ لَا يَسْتَهْدِفُ نَفْيَهُمَا مُطْلَقًا، بَلْ يَسْتَهْدِفُ تَحْرِيرَ العَقْلِ مِنْ سُلْطَتِهِمَا العَمْيَاءِ، وَإِعَادَ الاِعْتِبَارِ لِلنَّظَرِ وَالمُفَاضَلَةِ وَالتَّمْيِيزِ. وَبِذٰلِكَ يَضَعُ حُدُودًا مَبْدَئِيَّةً لِلطَّاعَةِ، وَيُمَهِّدُ لِلْمَطْلَبِ الثَّالِثِ، حَيْثُ يَبْرُزُ دَوْرُ الأَخْلَاقِ وَالعَقْلِ العَمَلِيِّ فِي كَسْرِ هٰذَا النَّمَطِ مِنَ الضَّبْطِ الصَّامِتِ.

**خُلَاصَةُ المَطْلَبِ الثَّانِي من المبحث الثاني:**

يَكْشِفُ تَحْلِيلُ العَادَةِ وَالتَّطْبِيعِ الثَّقَافِيِّ فِي فِكْرِ الجَاحِظِ أَنَّ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ لَا تُنْتَجُ بِالقَهْرِ أَوْ بِالأَمْرِ المُبَاشِرِ، بَلْ تَتَشَكَّلُ فِي مَسَارٍ تَدْرِيجِيٍّ صَامِتٍ يَعْمَلُ عَلَى تَحْوِيلِ السُّلُوكِ المُتَكَرِّرِ إِلَى عَادَةٍ، ثُمَّ إِلَى مِعْيَارٍ ثَقَافِيٍّ يُقَدَّمُ عَلَى أَنَّهُ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ وَبَدِيهِيٌّ. فَفِي هٰذَا السِّيَاقِ، لَا يَشْعُرُ الفَرْدُ بِأَنَّهُ خَاضِعٌ لِسُلْطَةٍ، بَلْ يَرَى نَفْسَهُ مُنْسَجِمًا مَعَ مَا «جَرَى عَلَيْهِ النَّاسُ» وَمَا أَلِفَتْهُ الجَمَاعَةُ.

وَيُظْهِرُ الجَاحِظُ أَنَّ قُوَّةَ العَادَةِ تَتَجَاوَزُ قُوَّةَ الحُجَّةِ النَّظَرِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا تَعْمَلُ فِي النَّفْسِ دُونَ أَنْ تَسْتَدْعِيَ وَعْيًا نَقْدِيًّا دَائِمًا. وَبِذٰلِكَ تُحَوِّلُ الامْتِثَالَ إِلَى سُلُوكٍ تِلْقَائِيٍّ، وَتَجْعَلُ مُخَالَفَتَهُ مَوْضُوعَ اِسْتِثْقَالٍ أَوِ اسْتِنْكَارٍ، لَا لِأَنَّهَا خَاطِئَةٌ فِي ذَاتِهَا، بَلْ لِأَنَّهَا تُخَالِفُ المَأْلُوفَ.

أَمَّا التَّطْبِيعُ الثَّقَافِيُّ، فَيُفْضِي إِلَى مَرْحَلَةٍ أَخْطَرَ، حَيْثُ تَتَحَوَّلُ الأَعْرَافُ وَالمَوَارِيثُ إِلَى مَعَايِيرَ صَامِتَةٍ لِلصَّوَابِ وَالخَطَإِ، وَيُقْبَلُ السُّلُوكُ لِقِدَمِهِ لَا لِصِحَّتِهِ. وَهُنَا تَتَوَارَى السُّلْطَةُ خَلْفَ لُغَةِ الاِتِّبَاعِ وَالاِسْتِمْرَارِ، وَتُحَقِّقُ أَقْصَى دَرَجَاتِ الضَّبْطِ بِأَدْنَى قَدْرٍ مِنَ القَهْرِ الظَّاهِرِ.

وَيُفْضِي اِجْتِمَاعُ العَادَةِ وَالتَّطْبِيعِ إِلَى تَشَكُّلِ نَمَطٍ مِنَ الضَّبْطِ الذَّاتِيِّ، حَيْثُ يُمَارِسُ الفَرْدُ الرَّقَابَةَ عَلَى نَفْسِهِ دُونَ إِكْرَاهٍ خَارِجِيٍّ، خَشْيَةَ الخُرُوجِ عَنِ المَأْلُوفِ أَوِ الاِتِّهَامِ بِالشُّذُوذِ. وَهُنَا تَبْلُغُ الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ أَقْصَى دَرَجَاتِ فَاعِلِيَّتِهَا، لِأَنَّهَا تَسْتَقِرُّ فِي بِنْيَةِ الذَّاتِ وَوَعْيِهَا، لَا فِي مَجَالِ الإِلْزَامِ المُبَاشِرِ.

وَعَلَيْهِ، تُبَيّنُ خُلَاصَةُ هٰذَا المَطْلَبِ أَنَّ الجَاحِظَ قَدَّمَ تَحْلِيلًا مُبَكِّرًا لِآلِيَّاتِ الضَّبْطِ الصَّامِتِ الَّتِي تَعْمَلُ مِنْ خِلَالِ العَادَةِ وَالتَّطْبِيعِ الثَّقَافِيِّ، وَوَضَعَ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ أُسُسَ نَقْدِهَا، بِالدَّعْوَةِ إِلَى إِعَادَةِ الِاعْتِبَارِ لِلنَّظَرِ وَالتَّمْيِيزِ وَتَحْكِيمِ العَقْلِ، وَهُوَ مَا يُمَهِّدُ لِلمَطْلَبِ الثَّالِثِ، حَيْثُ تَتَحَدَّدُ حُدُودُ الطَّاعَةِ فِي ضَوْءِ الأَخْلَاقِ وَالعَقْلِ العَمَلِيِّ.

**المَطْلَبُ الثَّالِثُ: الأَخْلَاقُ وَالعَقْلُ العَمَلِيُّ وَحُدُودُ الطَّاعَةِ:**

يَبْلُغُ تَحْلِيلُ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ فِي فِكْرِ الجَاحِظِ ذُرْوَتَهُ عِنْدَ مَوْضِعِ الأَخْلَاقِ وَالعَقْلِ العَمَلِيِّ؛ فَهُنَا لَا تَعُودُ الطَّاعَةُ مَسْأَلَةَ بَيَانٍ أَوْ عَادَةٍ فَحَسْبُ، بَلْ تُصْبِحُ مَوْضُوعَ مُفَاضَلَةٍ وَتَمْيِيزٍ بَيْنَ مَا يَنْبَغِي امْتِثَالُهُ وَمَا يَجِبُ نَقْدُهُ أَوْ رَفْضُهُ. وَفِي هٰذَا السِّيَاقِ، يَضَعُ الجَاحِظُ حُدُودًا مَبْدَئِيَّةً لِلطَّاعَةِ، مُؤَسَّسَةً عَلَى العَقْلِ العَمَلِيِّ وَقِيَمِ العَدْلِ وَالمَصْلَحَةِ وَالإِنْصَافِ.

**أَوَّلًا: العَقْلُ العَمَلِيُّ وَوَظِيفَةُ التَّمْيِيزِ**: يُؤَكِّدُ الجَاحِظُ أَنَّ العَقْلَ لَا يُقْصَدُ بِهِ مَعْرِفَةُ الأَشْيَاءِ فِي ذَوَاتِهَا فَقَطْ، بَلْ تَدْبِيرُ الأَفْعَالِ وَتَقْوِيمُهَا فِي سِيَاقِهَا العَمَلِيِّ. وَيَنْتَقِدُ الِاتِّبَاعَ الأَعْمَى الَّذِي يُعَطِّلُ وَظِيفَةَ التَّمْيِيزِ، مُبَيِّنًا أَنَّ كَثِيرًا مِنَ السُّلُوكِ يُمَارَسُ لِأَنَّهُ مَأْلُوفٌ لَا لِأَنَّهُ صَائِبٌ. وَفِي هٰذَا المَعْنَى يَقُولُ: «لَيْسَ كُلُّ مَا قَدِمَ صَوَابًا، وَلَا كُلُّ مَا جَرَى عَلَيْهِ النَّاسُ حُجَّةً».(الجاحظ، 1998، ج1، ص 101)

يُفِيدُ هٰذَا القَوْلُ أَنَّ الطَّاعَةَ الَّتِي تُعَطِّلُ العَقْلَ تَفْقِدُ مَشْرُوعِيَّتَهَا؛ فَالامْتِثَالُ لَا يَكُونُ فِعْلًا أَخْلَاقِيًّا إِلَّا إِذَا سَبَقَتْهُ عَمَلِيَّةُ نَظَرٍ وَمُفَاضَلَةٍ.

**ثَانِيًا: الأَخْلَاقُ وَتَقْيِيدُ الطَّاعَةِ:** يَرْبِطُ الجَاحِظُ الطَّاعَةَ بِقِيَمٍ أَخْلَاقِيَّةٍ تَضْبِطُهَا وَتَمْنَعُ انْزِلَاقَهَا إِلَى خُضُوعٍ أَعْمَى. فَالطَّاعَةُ، فِي مَنْظُورِهِ، لَا تُطْلَبُ لِذَاتِهَا، بَلْ بِقَدْرِ مَا تُحَقِّقُ العَدْلَ وَالصَّلَاحَ وَدَفْعَ الضَّرَرِ. وَمِنْ هُنَا يَنْتَقِدُ كُلَّ سُلْطَةٍ تَسْتَدْعِي الامْتِثَالَ بِغَيْرِ مِعْيَارٍ أَخْلَاقِيٍّ، مُشِيرًا إِلَى أَنَّ الطَّاعَةَ فِي هٰذِهِ الحَالَةِ تَتَحَوَّلُ إِلَى فِعْلٍ غَيْرِ مَشْرُوعٍ.

وَيُعَبِّرُ عَنْ هٰذَا التَّوَجُّهِ حِينَ يَرْبِطُ القِيَمَ الأَخْلَاقِيَّةَ بِالسُّلُوكِ العَمَلِيِّ، فَيَقُولُ: «إِنَّمَا فَضْلُ العَقْلِ بِحُسْنِ الِاسْتِعْمَالِ، لَا بِكَثْرَةِ العِلْمِ».(الجاحظ، 1996، ج1، ص 55)

فَالطَّاعَةُ الَّتِي لَا تَمُرُّ بِمِعْيَارِ حُسْنِ الِاسْتِعْمَالِ تُفْقِدُ العَقْلَ وَظِيفَتَهُ، وَتُفْرِغُ الأَخْلَاقَ مِنْ مَضْمُونِهَا.

**ثَالِثًا: حُدُودُ الطَّاعَةِ وَمَشْرُوعِيَّةُ الِامْتِثَالِ**: يَنْتَهِي هٰذَا التَّحْلِيلُ إِلَى أَنَّ الجَاحِظَ لَا يَدْعُو إِلَى نَفْيِ الطَّاعَةِ، بَلْ إِلَى تَرْشِيدِهَا وَوَضْعِ حُدُودٍ لَهَا. فَالطَّاعَةُ مَطْلُوبَةٌ مَا دَامَتْ مُتَّسِقَةً مَعَ العَقْلِ وَالأَخْلَاقِ، وَمَرْفُوضَةٌ إِذَا تَحَوَّلَتْ إِلَى خُضُوعٍ يُنَافِي العَدْلَ أَوْ يُعَطِّلُ النَّظَرَ. وَفِي هٰذَا الإِطَارِ، يَتَحَوَّلُ الفَرْدُ مِنْ مَوْضُوعٍ لِلطَّاعَةِ إِلَى فَاعِلٍ أَخْلَاقِيٍّ يُقَيِّمُ وَيُفَاضِلُ وَيَخْتَارُ.

وَبِذٰلِكَ، يُقَدِّمُ الجَاحِظُ نَمُوذَجًا لِلطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ المَشْرُوطَةِ، الَّتِي لَا تُنْتَجُ عَنْ تَطْبِيعٍ أَعْمَى، وَلَا تُفْرَضُ بِسُلْطَةٍ قَاهِرَةٍ، بَلْ تُبْنَى عَلَى تَوَازُنٍ دَقِيقٍ بَيْنَ العَقْلِ وَالأَخْلَاقِ وَالمَصْلَحَةِ. وَهٰكَذَا تَتَحَدَّدُ حُدُودُ الطَّاعَةِ فِي فِكْرِهِ عِنْدَ النُّقْطَةِ الَّتِي يَبْدَأُ فِيهَا الإِخْلَالُ بِالعَدْلِ أَوْ تَعْطِيلُ وَظِيفَةِ العَقْلِ العَمَلِيِّ.

**خُلَاصَةُ المَطْلَبِ الثَّالِث من المبحث الثاني:**

يُبَيّنُ هٰذَا المَطْلَبُ أَنَّ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ فِي فِكْرِ الجَاحِظِ لَا تَبْلُغُ مَشْرُوعِيَّتَهَا إِلَّا إِذَا خَضَعَتْ لِـ مِعْيَارِ الأَخْلَاقِ وَالعَقْلِ العَمَلِيِّ. فَالطَّاعَةُ لَا تُطْلَبُ لِذَاتِهَا، وَلَا تُقَدَّسُ بِحُكْمِ الِاعْتِيَادِ أَوِ الِاتِّبَاعِ، بَلْ تُقَوَّمُ بِمَا تُحَقِّقُهُ مِنْ عَدْلٍ وَصَلَاحٍ وَدَفْعٍ لِلضَّرَرِ. وَبِذٰلِكَ يَضَعُ الجَاحِظُ حَدًّا فَاصِلًا بَيْنَ الطَّاعَةِ المَشْرُوعَةِ وَالخُضُوعِ الأَعْمَى الَّذِي يُعَطِّلُ وَظِيفَةَ العَقْلِ.

وَيَتَّضِحُ، فِي ضَوْءِ نُصُوصِهِ، أَنَّ العَقْلَ العَمَلِيَّ يُؤَدِّي وَظِيفَةَ التَّمْيِيزِ وَالمُفَاضَلَةِ بَيْنَ الأَفْعَالِ، وَأَنَّ الامْتِثَالَ الَّذِي لَا يَسْبِقُهُ نَظَرٌ وَتَقْوِيمٌ يَفْقِدُ بُعْدَهُ الأَخْلَاقِيَّ. فَالطَّاعَةُ، فِي هٰذَا الإِطَارِ، لَا تَنْفَصِلُ عَنِ المَسْؤُولِيَّةِ، وَلَا تُعْفِي الفَرْدَ مِنْ حَقِّ السُّؤَالِ وَالمُحَاسَبَةِ الذَّاتِيَّةِ.

وَيُفْضِي هٰذَا التَّصَوُّرُ إِلَى أَنَّ الجَاحِظَ لَا يَدْعُو إِلَى تَفْكِيكِ الطَّاعَةِ بُوصْفِهَا مَبْدَأً مُنَظِّمًا لِلْحَيَاةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ، بَلْ إِلَى تَرْشِيدِهَا وَتَقْيِيدِهَا بِقِيَمٍ أَخْلَاقِيَّةٍ تَمْنَعُ انْحِرَافَهَا إِلَى أَدَاةِ قَهْرٍ أَوْ تَطْبِيعٍ أَعْمَى. فَعِنْدَ النُّقْطَةِ الَّتِي يَتَعَطَّلُ فِيهَا العَقْلُ، أَوْ يُنْتَهَكُ فِيهَا العَدْلُ، تَنْتَفِي مَشْرُوعِيَّةُ الطَّاعَةِ، وَيُصْبِحُ النَّقْدُ وَالرَّفْضُ فِعْلًا أَخْلَاقِيًّا مَشْرُوعًا.

وَعَلَيْهِ، تُقَدِّمُ خُلَاصَةُ هٰذَا المَطْلَبِ تَصَوُّرًا لِلطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ المَشْرُوطَةِ أَخْلَاقِيًّا، الَّتِي تَنْبَنِي عَلَى تَوَازُنٍ دَقِيقٍ بَيْنَ الامْتِثَالِ وَالنَّقْدِ، وَبَيْنَ الانْضِبَاطِ وَالمَسْؤُولِيَّةِ. وَبِهٰذَا يَكْتَمِلُ فِي فِكْرِ الجَاحِظِ إِطَارٌ نَظَرِيٌّ يُمَيِّزُ بَيْنَ طَاعَةٍ تُنْتِجُ الصَّلَاحَ، وَطَاعَةٍ تُعِيدُ إِنْتَاجَ القَهْرِ فِي صُورَةٍ أَخْفَى وَأَخْطَرَ.

**خُلَاصَةُ المَبْحَثِ الثَّانِي: آلِيَّاتُ إِنْتَاجِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ فِي فِكْرِ الجَاحِظ:**

يَكْشِفُ هٰذَا المَبْحَثُ أَنَّ فِكْرَ الجَاحِظِ يُقَدِّمُ تَحْلِيلًا مُبَكِّرًا وَعَمِيقًا لِآلِيَّاتِ إِنْتَاجِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ، لَا بُوصْفِهَا نَقِيضًا لِلسُّلْطَةِ، بَلْ بُوصْفِهَا أَحَدَ أَكْثَرِ أَشْكَالِهَا نَفَاذًا وَاسْتِقْرَارًا. فَالطَّاعَةُ، فِي مَشْرُوعِهِ، لَا تُفْرَضُ عَبْرَ القَهْرِ المُبَاشِرِ، وَلَا تُبْنَى عَلَى الإِلْزَامِ العُنْفِيِّ، بَلْ تُنْتَجُ مِنْ دَاخِلِ الثَّقَافَةِ وَالعَقْلِ وَالسُّلُوكِ اليَوْمِيِّ.

فِي المَطْلَبِ الأَوَّلِ، تَبَيَّنَ أَنَّ سُلْطَةَ البَيَانِ وَالإِقْنَاعِ تُمَثِّلُ أُسَّ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ عِنْدَ الجَاحِظِ؛ إِذْ يَعْمَلُ الخِطَابُ عَلَى تَشْكِيلِ الوَعْيِ وَتَوْجِيهِ الِاخْتِيَارِ، وَيَجْعَلُ الامْتِثَالَ نَتِيجَةً لِلإِفْهَامِ وَالِاقْتِنَاعِ لَا لِلخَوْفِ. وَهُنَا تَتَحَوَّلُ السُّلْطَةُ إِلَى قُوَّةٍ نَاعِمَةٍ تَعْمَلُ فِي مَسْتَوَى المَعْنَى وَالذَّائِقَةِ، وَتُؤَسِّسُ طَاعَةً أَثْبَتَ وَأَدْوَمَ مِنَ الطَّاعَةِ القَسْرِيَّةِ.

أَمَّا المَطْلَبُ الثَّانِي فَقَدْ كَشَفَ عَنْ دَوْرِ العَادَةِ وَالتَّطْبِيعِ الثَّقَافِيِّ كَآلِيَتَيْنِ لِضَبْطِ صَامِتٍ يَعْمَلُ فِي الظِّلِّ، حَيْثُ يَتَحَوَّلُ السُّلُوكُ المُتَكَرِّرُ إِلَى مَأْلُوفٍ، ثُمَّ إِلَى مِعْيَارٍ يُقَدَّمُ عَلَى أَنَّهُ طَبِيعِيٌّ وَبَدِيهِيٌّ. وَفِي هٰذَا السِّيَاقِ، تَتَوَارَى السُّلْطَةُ خَلْفَ لُغَةِ الإِتِّبَاعِ وَالإِسْتِمْرَارِ، وَتُحَقِّقُ الامْتِثَالَ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ الفَرْدُ بِأَنَّهُ خَاضِعٌ، بَلْ يَرَى نَفْسَهُ مُنْسَجِمًا مَعَ مَا «جَرَى عَلَيْهِ النَّاسُ».

وَفِي المَطْلَبِ الثَّالِث، وَضَعَ الجَاحِظُ حُدُودَ الطَّاعَةِ مِنْ خِلَالِ رَبْطِهَا بِالأَخْلَاقِ وَالعَقْلِ العَمَلِيِّ، مُؤَكِّدًا أَنَّ الطَّاعَةَ لَا تَكْتَسِبُ مَشْرُوعِيَّتَهَا إِلَّا إِذَا سَبَقَتْهَا عَمَلِيَّةُ نَظَرٍ وَتَمْيِيزٍ وَمُفَاضَلَةٍ. فَالامْتِثَالُ الَّذِي يُعَطِّلُ العَقْلَ أَوْ يُنَافِي العَدْلَ يَتَحَوَّلُ إِلَى خُضُوعٍ غَيْرِ مَشْرُوعٍ، وَيُفْقِدُ الطَّاعَةَ بُعْدَهَا الأَخْلَاقِيَّ.

وَعَلَيْهِ، يُمْكِنُ القَوْلُ إِنَّ الجَاحِظَ يُقَدِّمُ تَصَوُّرًا مُتَكَامِلًا لِلطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ، قَائِمًا عَلَى ثَلَاثِ دَوَائِرَ مُتَدَاخِلَةٍ: البَيَانُ الَّذِي يُقْنِعُ، وَالعَادَةُ الَّتِي تُطَبِّعُ، وَالعَقْلُ الأَخْلَاقِيُّ الَّذِي يُقَيِّدُ. وَبِهٰذَا التَّرْكِيبِ، لَا تَبْدُو الطَّاعَةُ عِنْدَهُ اسْتِسْلَامًا لِلسُّلْطَةِ، بَلْ مَجَالًا لِلتَّوَازُنِ بَيْنَ الامْتِثَالِ وَالنَّقْدِ، وَبَيْنَ الإِنْضِبَاطِ وَالمَسْؤُولِيَّةِ.

وَتُؤَسِّسُ هٰذِهِ الخُلَاصَةُ لِلإِنْتِقَالِ إِلَى المَبْحَثِ الثَّالِث، حَيْثُ تُوضَعُ هٰذِهِ الآلِيَّاتُ فِي أُفُقٍ مُقَارَنٍ مَعَ تَحْلِيلَاتِ مِيشِيل فُوكُو لِلسُّلْطَةِ وَالتَّطْبِيعِ وَإِنْتَاجِ الذَّاتِ، لِكَشْفِ أَوْجُهِ الإِلْتِقَاءِ وَالافْتِرَاقِ بَيْنَ مَشْرُوعَيْنِ يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا القَرْنُ، وَيَجْمَعُهُمَا سُؤَالُ السُّلْطَةِ فِي أَعْمَقِ تَجَلِّيَاتِهَا.

**المَبْحَثُ الثَّالِث: الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ وَتِقْنِيَّاتُ السُّلْطَةِ عِنْدَ مِيشِيل فُوكُو (قِرَاءَةٌ مُقَارِنَةٌ)**

يُخَصَّصُ هٰذَا المَبْحَثُ لِتَحْلِيلِ نَمُوذَجِ فُوكُو فِي فَهْمِ السُّلْطَةِ الغَيْرِ القَهْرِيَّةِ، مَعَ رَبْطِهِ نَقْدِيًّا بِمَا سَبَقَ تَحْلِيلُهُ عِنْدَ الجَاحِظِ.

**تَمْهِيدُ:**

يَنْفَتِحُ هٰذَا المَبْحَثُ عَلَى نَقْلَةٍ مَنْهَجِيَّةٍ مَحُورِيَّةٍ، يَتَجَاوَزُ فِيهَا التَّحْلِيلُ إِطَارَهُ التَّأْصِيلِيَّ عِنْدَ الجَاحِظِ إِلَى أُفُقٍ مُقَارِنٍ مَعَ أَحَدِ أَبْرَزِ مُنَظِّرِي السُّلْطَةِ فِي الفِكْرِ الحَدِيثِ، وَهُوَ مِيشِيلُ فُوكُو. فَإِذَا كَانَ المَبْحَثَانِ السَّابِقَانِ قَدْ أَظْهَرَا كَيْفَ تُنْتَجُ الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ مِنْ دَاخِلِ اللُّغَةِ وَالعَادَةِ وَالأَخْلَاقِ فِي فِكْرِ الجَاحِظِ، فَإِنَّ هٰذَا المَبْحَثَ يَسْعَى إِلَى فَهْمِ الطَّاعَةِ ذَاتِهَا فِي إِطَارٍ نَظَرِيٍّ حَدِيثٍ، يَجْعَلُ مِنَ السُّلْطَةِ شَبَكَةً عَلَاقِيَّةً تَنْفُذُ إِلَى أَعْمَاقِ الذَّاتِ، وَتُسَاهِمُ فِي إِنْتَاجِهَا وَتَشْكِيلِهَا.

يُقَدِّمُ فُوكُو تَحْلِيلًا مُغَايِرًا لِلتَّصَوُّرِ التَّقْلِيدِيِّ لِلسُّلْطَةِ، إِذْ لَا يَتَعَامَلُ مَعَهَا بِوَصْفِهَا مِلْكًا لِمَرْكَزٍ سِيَاسِيٍّ أَوْ جِهَةٍ حَاكِمَةٍ، بَلْ يَنْظُرُ إِلَيْهَا كَحَقْلٍ مِنَ العَلَاقَاتِ المُتَدَاخِلَةِ، الَّتِي تَعْمَلُ فِي المَدْرَسَةِ وَالمُسْتَشْفَى وَالمِصْنَعِ وَالخِطَابِ وَالمَعْرِفَةِ. وَفِي هٰذَا السِّيَاقِ، تَغْدُو الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ نَتِيجَةً لِآلِيَّاتٍ نَاعِمَةٍ تَعْمَلُ عَلَى تَطْبِيعِ السُّلُوكِ وَإِنْتَاجِ الذَّاتِ المُنْضَبِطَةِ، لَا عَبْرَ القَهْرِ الظَّاهِرِ، بَلْ عَبْرَ المِعْيَارِ وَالمُرَاقَبَةِ وَالضَّبْطِ الذَّاتِيِّ.

وَتَكْمُنُ أَهَمِّيَّةُ هٰذَا المَبْحَثِ فِي كَوْنِهِ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى عَرْضِ نَمُوذَجِ فُوكُو فِي فَهْمِ السُّلْطَةِ الغَيْرِ القَهْرِيَّةِ، بَلْ يَسْعَى إِلَى قِرَاءَةٍ مُقَارِنَةٍ نَقْدِيَّةٍ تَضَعُ هٰذَا النَّمُوذَجَ فِي حِوَارٍ مَعَ التَّصَوُّرِ الجَاحِظِيِّ. فَالْمُقَارَنَةُ هُنَا لَا تَنْبَنِي عَلَى التَّمَاثُلِ التَّارِيخِيِّ أَوِ التَّأْثِيرِ المُبَاشِرِ، بَلْ عَلَى تَقَاطُعِ الإِشْكَالِيَّاتِ: إِشْكَالِيَّةِ السُّلْطَةِ، وَآلِيَّاتِ عَمَلِهَا، وَكَيْفِيَّةِ إِنْتَاجِ الطَّاعَةِ دُونَ لُجُوءٍ إِلَى العُنْفِ المُبَاشِرِ.

وَبِهٰذَا، يَسْعَى المَبْحَثُ الثَّالِثُ إِلَى كَشْفِ أَوْجُهِ الإِلْتِقَاءِ وَالاخْتِلَافِ بَيْنَ مَشْرُوعَيْنِ فِكْرِيَّيْنِ يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا سِيَاقٌ تَارِيخِيٌّ وَمَعْرِفِيٌّ مُتَبَايِنٌ، وَلٰكِنَّهُمَا يَتَقَاطَعَانِ فِي سُؤَالٍ مَحُورِيٍّ وَاحِدٍ: كَيْفَ تُنْتِجُ السُّلْطَةُ ذَوَاتٍ مُطِيعَةً دُونَ أَنْ تَبْدُوَ فِي صُورَةِ قَهْرٍ؟ وَمِنْ هٰذَا الأُفُقِ، يَتَشَكَّلُ هٰذَا المَبْحَثُ كَجِسْرٍ نَظَرِيٍّ يَرْبِطُ بَيْنَ التَّحْلِيلِ التُّرَاثِيِّ وَالنَّقْدِ الفِلْسَفِيِّ الحَدِيثِ، فِي سَعْيٍ إِلَى فَهْمٍ أَعْمَقَ لِظَاهِرَةِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ فِي أَبْعَادِهَا المَعْرِفِيَّةِ وَالأَخْلَاقِيَّةِ وَالسُّلْطَوِيَّةِ

**المَطْلَبُ الأَوَّل من المبحث الثالث: السُّلْطَةُ كَشَبَكَةِ عَلَاقَاتٍ وَإِنْتَاجُ الذَّاتِ المُنْضَبِطَةِ:**

يُقَدِّمُ مِيشِيلُ فُوكُو قَطِيعَةً نَظَرِيَّةً حَاسِمَةً مَعَ التَّصَوُّرِ التَّقْلِيدِيِّ لِلسُّلْطَةِ، الَّذِي يَحْصُرُهَا فِي جِهَةٍ مَرْكَزِيَّةٍ تَأْمُرُ وَتَنْهَى وَتَقْهَرُ. فَالسُّلْطَةُ، فِي مَشْرُوعِهِ، لَا تُفْهَمُ بِوَصْفِهَا شَيْئًا يُمْتَلَكُ، بَلْ بِوَصْفِهَا عَلَاقَاتٍ مُتَشَابِكَةً تَسْرِي فِي نَسِيجِ المُجْتَمَعِ، وَتَعْمَلُ فِي أَدَقِّ تَفَاصِيلِ الحَيَاةِ اليَوْمِيَّةِ، وَتُشَكِّلُ الأَفْرَادَ قَبْلَ أَنْ تُوَاجِهَهُمْ.

وَيُعَبِّرُ فُوكُو عَنْ هٰذَا التَّحَوُّلِ تَعْبِيرًا صَرِيحًا حِينَ يَقُولُ: «السُّلْطَةُ لَا تُوجَدُ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ، وَلَا تُحْتَكَرُ مِنْ طَرَفِ جِهَةٍ بَعَيْنِهَا، بَلْ تَجْرِي فِي شَبَكَةٍ مِنَ العَلَاقَاتِ».( Foucault, 1980, p. 98)

يُفِيدُ هٰذَا التَّصَوُّرُ أَنَّ السُّلْطَةَ لَا تَعْمَلُ مِنْ خَارِجِ الذَّاتِ، بَلْ مِنْ دَاخِلِهَا، وَأَنَّهَا لَا تَتَجَلَّى فِي لَحْظَةِ القَهْرِ فَحَسْبُ، بَلْ فِي سَيْرُورَةِ التَّشْكِيلِ المُسْتَمِرِّ لِلسُّلُوكِ وَالإِدْرَاكِ. وَمِنْ هُنَا يَنْتَقِلُ مَحَلُّ التَّحْلِيلِ مِنَ السُّلْطَةِ كَحَدَثٍ سِيَاسِيٍّ إِلَى السُّلْطَةِ كَـ تِقْنِيَّةٍ.

**أَوَّلًا: مِنَ السِّيَادَةِ إِلَى الإِنْضِبَاطِ:** يُبَيِّنُ فُوكُو أَنَّ المُجْتَمَعَاتِ الحَدِيثَةَ شَهِدَتْ تَحَوُّلًا مِنْ نَمَطِ السُّلْطَةِ السِّيَادِيَّةِ، الَّتِي تَتَجَلَّى فِي العِقَابِ وَالعُنْفِ وَالإِعْدَامِ، إِلَى نَمَطٍ جَدِيدٍ هُوَ السُّلْطَةُ الإِنْضِبَاطِيَّةُ، الَّتِي لَا تَدْمُرُ الأَجْسَادَ بَلْ «تُدَرِّبُهَا» وَتُقَوِّمُهَا وَتُعِيدُ تَشْكِيلَهَا.( Foucault, 1979, pp. 135–169)

وَيَتَّضِحُ ذٰلِكَ فِي قَوْلِهِ: «الإِنْضِبَاطُ يَصْنَعُ أَجْسَادًا طَيِّعَةً: يَزِيدُ فَائِدَتَهَا وَيُقَلِّلُ عُصْيَانَهَا».(المصدر نفسه، ص 138)

فَالطَّاعَةُ، فِي هٰذَا السِّيَاقِ، لَا تُفْرَضُ عَلَى الجَسَدِ، بَلْ تُنْتَجُ مِنْ خِلَالِ تَنْظِيمِ الزَّمَنِ، وَتَقْسِيمِ الفَضَاءِ، وَضَبْطِ الحَرَكَةِ، وَإِدْخَالِ الفَرْدِ فِي شَبَكَةٍ مِنَ القَوَاعِدِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي يَتَعَلَّمُ الانْصِيَاعَ لَهَا دُونَ شُعُورٍ بِالإِكْرَاهِ.

**ثَانِيًا: إِنْتَاجُ الذَّاتِ المُنْضَبِطَةِ:** لَا تَقِفُ تِقْنِيَّاتُ السُّلْطَةِ عِنْدَ ضَبْطِ السُّلُوكِ الظَّاهِرِ، بَلْ تَتَجَاوَزُهُ إِلَى إِنْتَاجِ الذَّاتِ نَفْسِهَا. فَالسُّلْطَةُ، عِنْدَ فُوكُو، لَا تَقْمَعُ الذَّاتَ، بَلْ تُسَاهِمُ فِي تَكْوِينِهَا، وَتَجْعَلُهَا قَادِرَةً عَلَى ضَبْطِ نَفْسِهَا بِنَفْسِهَا.

وَيُصَرِّحُ فُوكُو بِذٰلِكَ قَائِلًا: «السُّلْطَةُ تُنْتِجُ ذَوَاتٍ( Foucault, Power/Knowledge, p. 119 ).»

فِي هٰذَا الإِطَارِ، تَتَحَوَّلُ الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ إِلَى نَمَطٍ مِنَ الإِنْضِبَاطِ الذَّاتِيِّ، حَيْثُ يُرَاقِبُ الفَرْدُ نَفْسَهُ، وَيُقَيِّمُ سُلُوكَهُ وَفْقَ مَعَايِيرَ اسْتُبْطِنَتْ فِي وَعْيِهِ. وَهُنَا تَبْلُغُ السُّلْطَةُ أَقْصَى دَرَجَاتِ فَاعِلِيَّتِهَا، لِأَنَّهَا لَمْ تَعُدْ تُوَاجِهُ الذَّاتَ، بَلْ تَسْكُنُهَا.

**ثَالِثًا: الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ كَأَثَرٍ لِلتِّقْنِيَّاتِ السُّلْطَوِيَّةِ:** يَنْتَهِي هٰذَا التَّحْلِيلُ إِلَى أَنَّ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ فِي فِكْرِ فُوكُو لَا تَنْشَأُ عَنْ اخْتِيَارٍ حُرٍّ خَالِصٍ، وَلَا عَنْ قَهْرٍ مُبَاشِرٍ، بَلْ عَنْ تِقْنِيَّاتٍ دَقِيقَةٍ تُنَظِّمُ الحَيَاةَ وَتُشَكِّلُ الذَّاتَ وَتَجْعَلُ الامْتِثَالَ أَمْرًا بَدِيهِيًّا. وَفِي هٰذَا تَتَقَاطَعُ تَحْلِيلَاتُ فُوكُو، عَلَى اخْتِلَافِ سِيَاقِهَا، مَعَ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ عِنْدَ الجَاحِظِ فِي دَوْرِ العَادَةِ وَالتَّطْبِيعِ، مَعَ فَارِقِ الأُفُقِ المَعْرِفِيِّ وَالمَنْهَجِيِّ.

**خلاصة المَطْلَبِ الأَوَّلِ:**

يُبَيِّنُ هٰذَا المَطْلَبُ أَنَّ مِيشِيلَ فُوكُو يُعِيدُ تَعْرِيفَ السُّلْطَةِ بُوصْفِهَا شَبَكَةً مِنَ العَلَاقَاتِ لَا تُخْتَزَلُ فِي مَرْكَزٍ سِيَاسِيٍّ أَوْ جِهَةٍ حَاكِمَةٍ، بَلْ تَتَسَرَّبُ إِلَى أَدَقِّ مَسَامِ المُجْتَمَعِ وَتَعْمَلُ فِي مَجَالِ الحَيَاةِ اليَوْمِيَّةِ. وَفِي هٰذَا الإِطَارِ، لَا تَعُودُ السُّلْطَةُ قُوَّةً تُقَابِلُ الذَّاتَ مِنْ خَارِجٍ، بَلْ تَغْدُو قُوَّةً تُسَاهِمُ فِي تَشْكِيلِ الذَّاتِ نَفْسِهَا وَإِنْتَاجِهَا.

وَيَتَّضِحُ أَنَّ التَّحَوُّلَ مِنْ نَمَطِ السِّيَادَةِ القَائِمِ عَلَى العِقَابِ إِلَى نَمَطِ الإِنْضِبَاطِ يُشَكِّلُ أُسَسَ هٰذَا التَّصَوُّرِ؛ فَالسُّلْطَةُ الحَدِيثَةُ لَا تُدَمِّرُ الأَجْسَادَ بَلْ تُدَرِّبُهَا، وَلَا تُقْصِي الأَفْرَادَ بَلْ تُدْخِلُهُمْ فِي شَبَكَةٍ مِنَ القَوَاعِدِ وَالمَعَايِيرِ الَّتِي تَجْعَلُ الطَّاعَةَ أَمْرًا مُسْتَبْطَنًا وَمُسْتَمِرًّا.

وَبِذٰلِكَ، تَنْشَأُ الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ فِي فِكْرِ فُوكُو كَأَثَرٍ لِتِقْنِيَّاتٍ سُلْطَوِيَّةٍ دَقِيقَةٍ تُنَظِّمُ الزَّمَنَ وَالفَضَاءَ وَالسُّلُوكَ، وَتُحَوِّلُ الامْتِثَالَ إِلَى نَمَطِ حَيَاةٍ بَدَلَ أَنْ يَكُونَ اسْتِجَابَةً لِأَمْرٍ مُبَاشِرٍ. وَهُنَا تَبْلُغُ السُّلْطَةُ أَقْصَى دَرَجَاتِ فَاعِلِيَّتِهَا، لِأَنَّهَا لَمْ تَعُدْ تُوَاجِهُ الذَّاتَ، بَلْ تَسْكُنُهَا وَتُدِيرُهَا مِنَ الدَّاخِلِ.

وَعَلَيْهِ، يُؤَسِّسُ هٰذَا المَطْلَبُ فَهْمًا لِلطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ لَا بُوصْفِهَا غِيَابًا لِلسُّلْطَةِ، بَلْ بُوصْفِهَا أَحَدَ أَكْثَرِ أَشْكَالِهَا تَعْقِيدًا وَنَفَاذًا، وَهُوَ مَا يُمَهِّدُ لِلمَطْلَبِ الثَّانِي، حَيْثُ يَتَّضِحُ دَوْرُ التَّطْبِيعِ وَالمِعْيَارِ وَالضَّبْطِ الذَّاتِيِّ فِي إِكْمَالِ هٰذَا النَّمَطِ مِنَ السُّلْطَةِ الغَيْرِ القَهْرِيَّةِ.

**المَطْلَبُ الثَّانِي: الضَّبْطُ الذَّاتِيُّ وَالتَّطْبِيعُ وَدَوْرُ المِعْيَارِ:**

يَنْتَقِلُ تَحْلِيلُ مِيشِيلِ فُوكُو لِلسُّلْطَةِ، فِي مَرْحَلَةٍ أَكْثَرَ تَعْمِيقًا، مِنْ بَيَانِ طَبِيعَتِهَا الشَّبَكِيَّةِ إِلَى تَفْكِيكِ آلِيَّاتِ عَمَلِهَا الدَّقِيقَةِ، خَاصَّةً تِلْكَ الَّتِي تُنْتِجُ الضَّبْطَ الذَّاتِيَّ وَتُحَوِّلُ الطَّاعَةَ إِلَى سُلُوكٍ يُمَارَسُ مِنْ دَاخِلِ الذَّاتِ نَفْسِهَا. فَالسُّلْطَةُ، فِي هٰذَا السِّيَاقِ، لَا تَحْتَاجُ إِلَى حُضُورٍ قَهْرِيٍّ دَائِمٍ، لِأَنَّهَا تُؤَسِّسُ شُرُوطَ امْتِثَالِهَا فِي بِنْيَةِ الوَعْيِ وَالسُّلُوكِ.

**أَوَّلًا: الضَّبْطُ الذَّاتِيُّ بُوصْفِهِ أَقْصَى أَشْكَالِ السُّلْطَةِ فَاعِلِيَّةً:** يُؤَكِّدُ فُوكُو أَنَّ أَخْطَرَ أَنْوَاعِ السُّلْطَةِ هِيَ تِلْكَ الَّتِي لَا تُوَاجِهُ الفَرْدَ مِنْ خَارِجٍ، بَلْ تَجْعَلُهُ يُمَارِسُ الرَّقَابَةَ عَلَى نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ. فِي هٰذَا النَّمَطِ، لَا يَكُونُ الفَرْدُ مُطِيعًا لِأَمْرٍ مُعْلَنٍ، بَلْ لِمِعْيَارٍ مُسْتَبْطَنٍ يُقَيِّمُ بِهِ ذَاتَهُ وَسُلُوكَهُ.

وَيُعَبِّرُ فُوكُو عَنْ هٰذِهِ السَّيْرُورَةِ حِينَ يَصِفُ نِظَامَ المُرَاقَبَةِ الإِنْضِبَاطِيَّةِ قَائِلًا: «يَكْفِي أَنْ يَكُونَ الفَرْدُ مُحْتَمَلَ المُرَاقَبَةِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، حَتَّى يُصْبِحَ رَقِيبًا عَلَى نَفْسِهِ».( Foucault, 1979, p. 201)

فَالضَّبْطُ الذَّاتِيُّ لَا يَنْشَأُ مِنَ القَهْرِ المُبَاشِرِ، بَلْ مِنْ اِسْتِبْطَانِ نَظَرَةِ السُّلْطَةِ، حَيْثُ تَتَحَوَّلُ المُرَاقَبَةُ إِلَى وَضْعٍ دَائِمٍ، وَتُصْبِحُ الطَّاعَةُ فِعْلًا يَوْمِيًّا تِلْقَائِيًّا.

**ثَانِيًا: التَّطْبِيعُ وَصُنْعُ «الطَّبِيعِيِّ»:** يُشَكِّلُ التَّطْبِيعُ أَحَدَ أَهَمِّ مَفَاهِيمِ فُوكُو فِي فَهْمِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ؛ فَالسُّلْطَةُ لَا تَأْمُرُ وَلَا تَنْهَى فَقَطْ، بَلْ تُنْتِجُ مَا يُعَدُّ طَبِيعِيًّا وَمَعْقُولًا وَمَقْبُولًا. وَبِذٰلِكَ، تَتَحَوَّلُ المَعَايِيرُ إِلَى مَرْجِعِيَّاتٍ صَامِتَةٍ تَحْكُمُ السُّلُوكَ دُونَ حَاجَةٍ إِلَى قَرَارٍ سِيَاسِيٍّ صَرِيحٍ.

وَيُبَيِّنُ فُوكُو هٰذَا الأَمْرَ حِينَ يَقُولُ: «السُّلْطَةُ الإِنْضِبَاطِيَّةُ لَا تَقْمَعُ، بَلْ تُقَوِّمُ، تُقَارِنُ، تُصَنِّفُ، وَتُطَبِّعُ».(المصدر نفسه، ص 183)

فِي هٰذَا السِّيَاقِ، يُقْبِلُ الفَرْدُ عَلَى الامْتِثَالِ لَيْسَ خَوْفًا مِنَ العِقَابِ، بَلْ خَشْيَةَ الخُرُوجِ عَنِ «المَعْيَارِ»، أَيْ عَنِ مَا يُعَدُّ سَوِيًّا وَمَقْبُولًا. وَهُنَا تَتَحَوَّلُ الطَّاعَةُ إِلَى شَكْلٍ مِنَ الإِنْسِجَامِ الاِجْتِمَاعِيِّ، يَبْدُو طَبِيعِيًّا وَبَدِيهِيًّا.

**ثَالِثًا: دَوْرُ المِعْيَارِ فِي تَحْوِيلِ السُّلْطَةِ إِلَى وَعْيٍ:** يُعَدُّ المِعْيَارُ الأَدَاةَ المَرْكَزِيَّةَ الَّتِي تَعْمَلُ مِنْ خِلَالِهَا السُّلْطَةُ الحَدِيثَةُ؛ فَهُوَ لَا يَفْرِضُ فِعْلًا مُحَدَّدًا، بَلْ يُنْتِجُ أُفُقًا تَقْوِيمِيًّا يُقَاسُ فِيهِ السُّلُوكُ وَتُقَدَّرُ فِيهِ الذَّاتُ. وَفِي هٰذَا الإِطَارِ، يَتَحَوَّلُ المِعْيَارُ إِلَى مِرْآةٍ تَنْظُرُ الذَّاتُ فِيهَا إِلَى نَفْسِهَا، وَتُقَيِّمُ مَدَى اِنْصِيَاعِهَا لِمَا «يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ».

وَيُشِيرُ فُوكُو إِلَى هٰذَا البُعْدِ حِينَ يَرْبِطُ بَيْنَ المِعْيَارِ وَإِنْتَاجِ الذَّاتِ، مُؤَكِّدًا أَنَّ السُّلْطَةَ تُنْتِجُ أَنْسَاقًا مِنَ الحَقِيقَةِ، تَجْعَلُ الأَفْرَادَ يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ خِلَالِهَا(Foucault, 1980, pp. 131–133)

وَبِذٰلِكَ، تَكْتَمِلُ سَيْرُورَةُ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ: فَلَا أَمْرَ، وَلَا قَهْرَ، بَلْ مِعْيَارٌ يُطَبِّعُ، وَذَاتٌ تُرَاقِبُ نَفْسَهَا، وَسُلُوكٌ يَنْضَبِطُ مِنْ دَاخِلِهِ.

**خَاتِمَةٌ تَمْهِيدِيَّةٌ لِلْمُقَارَنَةِ:**

يُظْهِرُ هٰذَا المَطْلَبُ أَنَّ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ عِنْدَ فُوكُو هِيَ نَتَاجُ تِقْنِيَّاتِ تَطْبِيعٍ وَضَبْطٍ ذَاتِيٍّ تَعْمَلُ فِي مَسْتَوَى المِعْيَارِ وَالوَعْيِ، لَا فِي مَجَالِ الإِلْزَامِ المُبَاشِرِ. وَهُنَا يَتَهَيَّأُ الأُفُقُ لِلْمَطْلَبِ الثَّالِثِ، الَّذِي سَيُخَصَّصُ لِكَشْفِ أَوْجُهِ الِالْتِقَاءِ وَالِاخْتِلَافِ بَيْنَ هٰذَا النَّمُوذَجِ الفُوكُوِيِّ وَالتَّصَوُّرِ الجَاحِظِيِّ فِي إِنْتَاجِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ.

**خُلَاصَةُ المَطْلَبِ الثَّانِي من المبحث الثالث:**

يُبَيِّنُ هٰذَا المَطْلَبُ أَنَّ مِيشِيلَ فُوكُو يَفْهَمُ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ بُوصْفِهَا أَثَرًا لِتِقْنِيَّاتِ الضَّبْطِ الذَّاتِيِّ وَالتَّطْبِيعِ وَالمِعْيَارِ، لَا نَتِيجَةً لِقَهْرٍ مُبَاشِرٍ أَوْ أَمْرٍ صَرِيحٍ. فَالسُّلْطَةُ الحَدِيثَةُ لَا تَعْمَلُ عَلَى كَسْرِ الإِرَادَةِ، بَلْ عَلَى تَشْكِيلِهَا، مِنْ خِلَالِ إِنْتَاجِ أُفُقٍ مِعْيَارِيٍّ يُحَدِّدُ مَا يُعَدُّ سَوِيًّا وَمَقْبُولًا وَمَطْلُوبًا.( Foucault, 1980, pp. 131–133)

وَيَتَّضِحُ أَنَّ الضَّبْطَ الذَّاتِيَّ يُمَثِّلُ أَقْصَى دَرَجَاتِ فَاعِلِيَّةِ السُّلْطَةِ؛ إِذْ يُحَوِّلُ المُرَاقَبَةَ مِنْ آلِيَّةٍ خَارِجِيَّةٍ إِلَى مُمَارَسَةٍ دَاخِلِيَّةٍ، فَيُصْبِحُ الفَرْدُ رَقِيبًا عَلَى نَفْسِهِ، وَيُقَيِّمُ سُلُوكَهُ وَفْقَ مَعَايِيرَ اسْتُبْطِنَتْ فِي وَعْيِهِ دُونَ حَاجَةٍ إِلَى تَدَخُّلٍ قَهْرِيٍّ مُسْتَمِرٍّ.( Foucault, 1979, p. 201)

كَمَا يَكْشِفُ التَّحْلِيلُ أَنَّ التَّطْبِيعَ يَعْمَلُ عَلَى تَحْوِيلِ السُّلُوكِ مِنْ كَوْنِهِ اخْتِيَارًا إِلَى كَوْنِهِ مِعْيَارًا، حَيْثُ يُقْبَلُ الامْتِثَالُ لِأَنَّهُ «الطَّبِيعِيُّ»، وَيُسْتَبْعَدُ كُلُّ خُرُوجٍ عَنْهُ بِوَصْفِهِ شُذُوذًا أَوْ لَامَعْقُولًا. وَفِي هٰذَا السِّيَاقِ، تَتَوَارَى السُّلْطَةُ خَلْفَ لُغَةِ التَّقْوِيمِ وَالتَّصْنِيفِ، وَتُحَقِّقُ الطَّاعَةَ دُونَ أَنْ تَظْهَرَ فِي صُورَةِ فَرْضِ سِيَاسِيٍّ مُبَاشِرٍ(المصدر نفسه، ص 183)

وَيُفْضِي اِجْتِمَاعُ الضَّبْطِ الذَّاتِيِّ وَالتَّطْبِيعِ وَالمِعْيَارِ إِلَى إِنْتَاجِ نَمَطٍ مِنَ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ الَّتِي تَبْدُو اخْتِيَارًا شَخْصِيًّا، فِيمَا هِيَ فِي الجَوْهَرِ نَتَاجُ بِنْيَةٍ سُلْطَوِيَّةٍ دَقِيقَةٍ تَعْمَلُ فِي مَسْتَوَى الوَعْيِ وَالهُوِيَّةِ. وَبِذٰلِكَ، يَتَّضِحُ أَنَّ الطَّاعَةَ عِنْدَ فُوكُو لَا تُفْهَمُ إِلَّا فِي إِطَارِ سُؤَالِ إِنْتَاجِ الذَّاتِ، لَا فِي إِطَارِ الِاسْتِجَابَةِ لِلسُّلْطَةِ فَقَطْ.

وَعَلَيْهِ، تُؤَسِّسُ خُلَاصَةُ هٰذَا المَطْلَبِ لِلْمُقَارَنَةِ المَنْهَجِيَّةِ مَعَ التَّصَوُّرِ الجَاحِظِيِّ، حَيْثُ سَيَتَّضِحُ أَنَّ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ، فِي كِلَا المَشْرُوعَيْنِ، لَا تُفْهَمُ بُوصْفِهَا غِيَابًا لِلسُّلْطَةِ، بَلْ بُوصْفِهَا أَحَدَ أَشْكَالِهَا الأَكْثَرِ نَفَاذًا.

**المَطْلَبُ الثَّالِث: أَوْجُهُ الِالْتِقَاءِ وَالِاخْتِلَافِ بَيْنَ نَسَقِ الجَاحِظِ وَمَنْظُورِ مِيشِيلِ فُوكُو فِي إِنْتَاجِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ:**

يُفْضِي النَّظَرُ المُقَارِنُ فِي نَسَقِ الجَاحِظِ وَمَنْظُورِ مِيشِيلِ فُوكُو إِلَى أَنَّ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ لَا تُفْهَمُ، فِي كِلَا الرُّؤْيَتَيْنِ، بُوصْفِهَا غِيَابًا لِلسُّلْطَةِ، بَلْ بُوصْفِهَا نَتِيجَةً لِاشْتِغَالِهَا فِي أَشْكَالٍ غَيْرِ قَهْرِيَّةٍ، تَعْمَلُ فِي مَسْتَوَى الوَعْيِ وَالسُّلُوكِ وَتَشْكِيلِ الذَّاتِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنَ التَّبَايُنِ التَّارِيخِيِّ وَالمَعْرِفِيِّ، فَإِنَّ التَّقَاطُعَ بَيْنَهُمَا يَنْعَقِدُ حَوْلَ سُؤَالٍ وَاحِدٍ: كَيْفَ يُنْتِجُ النِّظَامُ السُّلْطَوِيُّ ذَوَاتٍ مُطِيعَةً دُونَ أَنْ يَبْدُوَ خَاضِعَةً؟

**أَوَّلًا: أَوْجُهُ الِالْتِقَاءِ فِي آلِيَّاتِ الإِنْتَاجِ:** يَلْتَقِي نَسَقُ الجَاحِظِ وَمَنْظُورُ فُوكُو فِي أَنَّ الطَّاعَةَ لَا تُفْرَضُ فَرْضًا، بَلْ تُنْتَجُ مِنْ دَاخِلِ السُّلُوكِ الِاجْتِمَاعِيِّ نَفْسِهِ. فَعِنْدَ الجَاحِظِ، يَحْتَلُّ البَيَانُ وَالإِقْنَاعُ وَالعَادَةُ مَكَانَةً مَرْكَزِيَّةً فِي تَوْجِيهِ الفِعْلِ، حَتَّى يَغْدُو الامْتِثَالُ نَاتِجًا عَنْ الِاسْتِئْنَاسِ وَالأُلْفَةِ لَا عَنْ الإِكْرَاهِ. وَيُصَرِّحُ الجَاحِظُ بِذٰلِكَ قَائِلًا: «النَّاسُ أَبْنَاءُ مَا أَلِفُوا، وَمُجْرَى العَادَةِ عِنْدَهُمْ أَقْوَى مِنْ مُجْرَى الحُجَّةِ»(الجاحظ، 1998، ج1، ص 75).

وَهٰذَا النَّصُّ يُفِيدُ أَنَّ السُّلُوكَ لَا يُضْبَطُ بِالأَمْرِ، بَلْ بِالِاعْتِيَادِ، وَأَنَّ الطَّاعَةَ تَنْشَأُ عِنْدَ النُّقْطَةِ الَّتِي يَتَحَوَّلُ فِيهَا المَأْلُوفُ إِلَى مِعْيَارٍ غَيْرِ مُسَاءَلٍ.

وَفِي الِاتِّجَاهِ نَفْسِهِ، يُقَرِّرُ فُوكُو أَنَّ السُّلْطَةَ الحَدِيثَةَ لَا تَعْمَلُ بِوَاسِطَةِ الأَوَامِرِ، بَلْ بِوَاسِطَةِ التَّطْبِيعِ وَإِنْتَاجِ المِعْيَارِ، حَيْثُ يَقُولُ: «السُّلْطَةُ الإِنْضِبَاطِيَّةُ لَا تَقْمَعُ، بَلْ تُقَوِّمُ، تُقَارِنُ، تُصَنِّفُ، وَتُطَبِّعُ» ( Foucault, 1979, p. 183).

وَبِذٰلِكَ، تَلْتَقِي الرُّؤْيَتَانِ فِي فِكْرَةِ اِسْتِبْطَانِ السُّلْطَةِ؛ إِذْ تَغْدُو الطَّاعَةُ سُلُوكًا دَاخِلِيًّا يُمَارَسُ مِنْ دُونِ إِحْسَاسٍ بِالخُضُوعِ.

**ثَانِيًا: أَوْجُهُ الِاخْتِلَافِ فِي الأُفُقِ التَّقْوِيمِيِّ:** عَلَى الرَّغْمِ مِنْ هٰذَا التَّقَاطُعِ، يَفْتَرِقُ نَسَقُ الجَاحِظِ عَنْ مَنْظُورِ فُوكُو فِي النِّهَايَةِ المَعْيَارِيَّةِ لِلطَّاعَةِ. فَعِنْدَ الجَاحِظِ، تَبْقَى الطَّاعَةُ مَشْرُوطَةً بِالعَقْلِ وَالعَدْلِ، وَلَا تَكْتَسِبُ شَرْعِيَّتَهَا إِلَّا إِذَا خَضَعَتْ لِلتَّمْيِيزِ وَالمُفَاضَلَةِ. وَيَقُولُ فِي هٰذَا السِّيَاقِ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَضَرَّ عَلَى العُقُولِ مِنْ إِطَالَةِ التَّقْلِيدِ، وَتَرْكِ النَّظَرِ»(الجاحظ، 1996، ج1، ص 55). يُفِيدُ هٰذَا النَّصُّ أَنَّ الطَّاعَةَ الَّتِي تُعَطِّلُ النَّظَرَ وَتُحَوِّلُ الإِنْسَانَ إِلَى مُقَلِّدٍ فَقَدَتْ مَشْرُوعِيَّتَهَا الأَخْلَاقِيَّةَ، وَأَصْبَحَتْ شَكْلًا مِنْ أَشْكَالِ الخُضُوعِ المَذْمُومِ.

أَمَّا فُوكُو، فَيَتَّخِذُ مَوْقِفًا تَشْخِيصِيًّا لَا تَقْوِيمِيًّا؛ إِذْ يَنْصَبُّ هَمُّهُ عَلَى كَشْفِ كَيْفَ تُنْتَجُ الطَّاعَةُ، لَا عَلَى تَحْدِيدِ مَشْرُوعِيَّتِهَا. وَيُصَرِّحُ بِذٰلِكَ قَائِلًا: «لَا أَقُولُ إِنَّ السُّلْطَةَ شَرٌّ، بَلْ إِنَّهَا خَطِرَةٌ»( Foucault, 1980, p. 343.). وَهُنَا يَتَّضِحُ أَنَّ مَنْظُورَ فُوكُو يَفْتَحُ أُفُقَ النَّقْدِ، دُونَ أَنْ يُقَدِّمَ مِعْيَارًا أَخْلَاقِيًّا يَحْكُمُ الطَّاعَةَ أَوْ يُقَيِّدُهَا.

**ثَالِثًا: خُلَاصَةٌ مُقَارِنَةٌ:** يَنْتَهِي هٰذَا المَطْلَبُ إِلَى أَنَّ نَسَقَ الجَاحِظِ يُؤَسِّسُ لِطَاعَةٍ طَوْعِيَّةٍ مُقَيَّدَةٍ أَخْلَاقِيًّا، تَبْقَى فِيهَا لِلعَقْلِ وَالنَّقْدِ وَالعَدْلِ دَوْرٌ حَاسِمٌ، فِيمَا يَقْتَصِرُ مَنْظُورُ فُوكُو عَلَى تَشْخِيصِ آلِيَّاتِ إِنْتَاجِ الطَّاعَةِ فِي النُّظُمِ الحَدِيثَةِ، دُونَ أَنْ يَقْتَرِحَ مِعْيَارًا تَقْوِيمِيًّا مُلْزِمًا. وَبِهٰذَا، يَتَبَيَّنُ أَنَّ الِالْتِقَاءَ بَيْنَهُمَا يَقَعُ فِي مَسْتَوَى التَّحْلِيلِ، أَمَّا الِاخْتِلَافُ فَيَقَعُ فِي مَسْتَوَى الغَايَةِ وَالأُفُقِ الأَخْلَاقِيِّ.

**خُلَاصَةُ المَطْلَبِ الثَّالِث:**

يُفْضِي التَّحْلِيلُ المُقَارِنُ بَيْنَ نَسَقِ الجَاحِظِ وَمَنْظُورِ مِيشِيلِ فُوكُو إِلَى أَنَّ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ تَتَشَكَّلُ، فِي كِلَا الرُّؤْيَتَيْنِ، بُوصْفِهَا نَتَاجًا لِآلِيَّاتٍ نَاعِمَةٍ تَعْمَلُ فِي مَسْتَوَى الوَعْيِ وَالسُّلُوكِ، لَا بُوصْفِهَا اسْتِجَابَةً لِقَهْرٍ مُبَاشِرٍ. فَالطَّاعَةُ لَا تَنْشَأُ مِنْ فَرَاغٍ سُلْطَوِيٍّ، بَلْ مِنْ بِنْيَةٍ تَشْكِيلِيَّةٍ تُنْتِجُ الامْتِثَالَ عَبْرَ الإِقْنَاعِ وَالعَادَةِ وَالمِعْيَارِ وَاسْتِبْطَانِ السُّلْطَةِ.

وَيَتَّضِحُ أَنَّ نُقْطَةَ الإِلْتِقَاءِ الأَسَاسِيَّةَ بَيْنَ الجَاحِظِ وَفُوكُو تَكْمُنُ فِي فَهْمِهِمَا لِلطَّاعَةِ بُوصْفِهَا فِعْلًا دَاخِلِيًّا يُمَارَسُ مِنْ غَيْرِ شُعُورٍ بِالخُضُوعِ؛ فَعِنْدَ الجَاحِظِ تَنْتُجُ الطَّاعَةُ مِنْ سَيْرُورَةِ الأُلْفَةِ وَالتَّطَبُّعِ، وَعِنْدَ فُوكُو مِنْ سَيْرُورَةِ التَّطْبِيعِ وَالضَّبْطِ الذَّاتِيِّ.

أَمَّا نُقْطَةُ الإِخْتِلَافِ الجَوْهَرِيَّةُ، فَتَتَجَلَّى فِي الأُفُقِ التَّقْوِيمِيِّ؛ إِذْ يُؤَسِّسُ نَسَقُ الجَاحِظِ لِطَاعَةٍ طَوْعِيَّةٍ مَشْرُوطَةٍ أَخْلَاقِيًّا، يُقَيِّدُهَا العَقْلُ وَالعَدْلُ وَيَحْفَظُ فِيهَا حَقَّ النَّقْدِ وَالرَّفْضِ، فِي حِينِ يَقِفُ مَنْظُورُ فُوكُو عِنْدَ تَشْخِيصِ آلِيَّاتِ إِنْتَاجِ الطَّاعَةِ دُونَ أَنْ يَتَقَدَّمَ بِمِعْيَارٍ أَخْلَاقِيٍّ حَاكِمٍ.

وَعَلَيْهِ، يَكْشِفُ هٰذَا المَطْلَبُ أَنَّ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ تُمَثِّلُ فِي نَسَقِ الجَاحِظِ مَجَالًا لِلمَسْؤُولِيَّةِ الأَخْلَاقِيَّةِ، فِيمَا تُمَثِّلُ فِي مَنْظُورِ فُوكُو مَوْضُوعًا لِلنَّقْدِ التَّحْلِيلِيِّ. وَبِهٰذَا يَكْتَمِلُ الأُفُقُ المُقَارِنُ، مُمَهِّدًا لِخُلَاصَةِ المَبْحَثِ الثَّالِثِ وَالنَّتَائِجِ العَامَّةِ لِلْبَحْثِ.

**خُلَاصَةُ المَبْحَثِ الثَّالِث: الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ وَتِقْنِيَّاتُ السُّلْطَةِ عِنْدَ مِيشِيلِ فُوكُو (قِرَاءَةٌ مُقَارِنَةٌ)**

يَكْشِفُ هٰذَا المَبْحَثُ أَنَّ تَحْلِيلَ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ فِي مَنْظُورِ مِيشِيلِ فُوكُو يُشَكِّلُ اِمْتِدَادًا نَقْدِيًّا عَمِيقًا لِفَهْمِ السُّلْطَةِ الغَيْرِ القَهْرِيَّةِ، حَيْثُ لَا تُفْهَمُ السُّلْطَةُ بُوصْفِهَا قُوَّةً مَرْكَزِيَّةً تَفْرِضُ الطَّاعَةَ مِنْ خَارِجٍ، بَلْ بُوصْفِهَا شَبَكَةً مِنَ العَلَاقَاتِ تَعْمَلُ فِي مَسْتَوَى المَعْرِفَةِ وَالسُّلُوكِ وَتَشْكِيلِ الذَّاتِ. وَبِهٰذَا، تَغْدُو الطَّاعَةُ الطَّوْعِيَّةُ أَثَرًا بِنْيَوِيًّا لِتِقْنِيَّاتِ الضَّبْطِ وَالتَّطْبِيعِ، لَا نَتِيجَةً لِإِكْرَاهٍ صَرِيحٍ أَوْ أَمْرٍ مُبَاشِرٍ.

وَقَدْ بَيَّنَ المَطْلَبُ الأَوَّلُ أَنَّ فُوكُو يُعِيدُ تَعْرِيفَ السُّلْطَةِ كَحَقْلٍ عَلَاقِيٍّ يُنْتِجُ الذَّاتَ المُنْضَبِطَةَ، حَيْثُ تَعْمَلُ التِّقْنِيَّاتُ الإِنْضِبَاطِيَّةُ عَلَى تَدْرِيبِ الأَجْسَادِ وَتَنْظِيمِ السُّلُوكِ، بِمَا يَجْعَلُ الامْتِثَالَ فِعْلًا دَاخِلِيًّا مُسْتَمِرًّا. أَمَّا المَطْلَبُ الثَّانِي، فَقَدْ كَشَفَ أَنَّ أَقْصَى دَرَجَاتِ فَاعِلِيَّةِ السُّلْطَةِ تَتَجَلَّى فِي الضَّبْطِ الذَّاتِيِّ وَالتَّطْبِيعِ وَإِنْتَاجِ المِعْيَارِ، حَيْثُ يَغْدُو الفَرْدُ رَقِيبًا عَلَى نَفْسِهِ، وَتَتَحَوَّلُ الطَّاعَةُ إِلَى سُلُوكٍ يَبْدُو طَبِيعِيًّا وَبَدِيهِيًّا.

وَفِي المَطْلَبِ الثَّالِث، تَمَّتْ مُقَارَنَةُ هٰذَا المَنْظُورِ الفُوكُوِيِّ بِنَسَقِ الجَاحِظِ، لِيَتَّضِحَ أَنَّ نُقْطَةَ الإِلْتِقَاءِ تَكْمُنُ فِي تَفْكِيكِ الطَّاعَةِ بُوصْفِهَا فِعْلًا مُسْتَبْطَنًا يَنْشَأُ مِنَ العَادَةِ وَالتَّطْبِيعِ وَالإِقْنَاعِ، فِيمَا يَقَعُ الإِخْتِلَافُ فِي الأُفُقِ التَّقْوِيمِيِّ؛ إِذْ يُقَيِّدُ الجَاحِظُ الطَّاعَةَ بِالعَقْلِ وَالعَدْلِ وَالمَسْؤُولِيَّةِ الأَخْلَاقِيَّةِ، فِي حِينِ يَقِفُ فُوكُو عِنْدَ تَشْخِيصِ آلِيَّاتِ إِنْتَاجِ الطَّاعَةِ دُونَ أَنْ يُقَدِّمَ مِعْيَارًا أَخْلَاقِيًّا حَاكِمًا.

وَعَلَيْهِ، يَنْتَهِي هٰذَا المَبْحَثُ إِلَى أَنَّ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ لَا تُمَثِّلُ نَقِيضَ السُّلْطَةِ، بَلْ أَحَدَ أَكْثَرِ أَشْكَالِهَا نُضْجًا وَخُفُوتًا. فَهِيَ، فِي مَنْظُورِ فُوكُو، نَتَاجُ بِنْيَةٍ تَنْظِيمِيَّةٍ تُنْتِجُ ذَوَاتٍ مُنْضَبِطَةً، وَهِيَ، فِي نَسَقِ الجَاحِظِ، مَجَالٌ مَشْرُوطٌ بِالأَخْلَاقِ وَالعَقْلِ. وَبِهٰذَا الإِخْتِلَافِ، يَكْتَمِلُ الأُفُقُ المُقَارِنُ لِلْبَحْثِ، مُمَهِّدًا لِلنَّتَائِجِ العَامَّةِ وَالخَاتِمَةِ النَّظَرِيَّةِ.

**الخَاتِمَةُ:**

**يَنْتَهِي هٰذَا البَحْثُ إِلَى تَأْسِيسِ فَهْمٍ مُرَكَّبٍ لِلطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ، بِوَصْفِهَا بِنْيَةً مَعْرِفِيَّةً–سُلْطَوِيَّةً، تَتَشَكَّلُ فِي تَقَاطُعِ الخِطَابِ وَالعَادَةِ وَالمِعْيَارِ وَتَكْوِينِ الذَّاتِ. فَهِيَ لَا تُمَثِّلُ مُجَرَّدَ اِمْتِثَالٍ ظَاهِرٍ، بَلْ تَعْمَلُ فِي أَعْمَاقِ الوَعْيِ حَيْثُ يَتَوَهَّمُ الإِنْسَانُ أَنَّهُ يُمَارِسُ حُرِّيَّتَهُ.**

**وَقَدْ أَظْهَرَ نَسَقُ الجَاحِظِ وُعْيًا مُبَكِّرًا بِآلِيَّاتِ إِنْتَاجِ الطَّاعَةِ مِنْ دَاخِلِ الذَّاتِ، مِنْ خِلَالِ البَيَانِ وَالإِقْنَاعِ وَتَشْكِيلِ العَادَةِ وَالأُلْفَةِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَتْرُكُهَا بِلَا ضَبْطٍ، بَلْ يُخْضِعُهَا لِمِعْيَارِ العَقْلِ وَالعَدْلِ وَالنَّقْدِ، فَتَغْدُو الطَّاعَةُ لَدَيْهِ مَجَالًا لِلمَسْؤُولِيَّةِ الأَخْلَاقِيَّةِ، لَا لِلخُضُوعِ الأَعْمَى.**

**أَمَّا مِيشِيلُ فُوكُو فَيُقَدِّمُ تَحْلِيلًا دَقِيقًا لِتَحَوُّلِ السُّلْطَةِ فِي العَالَمِ الحَدِيثِ، حَيْثُ تَنْتَقِلُ مِنَ القَهْرِ المُبَاشِرِ إِلَى التَّطْبِيعِ وَإِنْتَاجِ المِعْيَارِ وَصِنَاعَةِ الذَّاتِ المُنْضَبِطَةِ، فَتَتَحَوَّلُ الطَّاعَةُ إِلَى أَثَرٍ لِتِقْنِيَّاتٍ تُنْتِجُ ذَوَاتٍ تُرَاقِبُ نَفْسَهَا وَتَمْتَثِلُ دُونَ أَمْرٍ صَرِيحٍ. غَيْرَ أَنَّ فُوكُو يَبْقَى فِي مَسْتَوَى التَّشْخِيصِ، دُونَ تَأْسِيسِ مِعْيَارٍ أَخْلَاقِيٍّ يَحْكُمُ مَشْرُوعِيَّةَ الطَّاعَةِ.**

**وَمِنْ ثَمَّ، تَتَجَلَّى أَهَمِّيَّةُ هٰذِهِ المُقَارَنَةِ فِي أَنَّهَا تُوَفِّرُ حِوَارًا بَيْنَ تَحْلِيلِ السُّلْطَةِ وَتَقْوِيمِهَا، وَبَيْنَ فَهْمِ كَيْفَ تُنْتَجُ الطَّاعَةُ وَتَحْدِيدِ مَتَى تَصِيرُ خُضُوعًا يَجِبُ أَنْ يُقَاوَمَ. وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ تَظَلُّ اِخْتِبَارًا دَائِمًا لِحُرِّيَّةِ الذَّاتِ وَحُدُودِ مَسْؤُولِيَّتِهَا فِي زَمَنِ السُّلْطَةِ النَّاعِمَةِ.**

**نَتَائِجُ البَحْث:**

**1. تَبَيَّنَ أَنَّ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ لَا تَقِفُ فِي مُقَابِلِ السُّلْطَةِ، بَلْ تُمَثِّلُ أَحَدَ أَكْثَرِ أَشْكَالِهَا خُفُوتًا وَنُفُوذًا، لِأَنَّهَا تَعْمَلُ فِي مَسْتَوَى الوَعْيِ وَالسُّلُوكِ مِنْ دَاخِلِ الذَّاتِ.**

**2. كَشَفَتِ الدِّرَاسَةُ أَنَّ الجَاحِظَ قَدَّمَ تَصَوُّرًا مُبَكِّرًا لِلسُّلْطَةِ غَيْرِ القَهْرِيَّةِ، مُبْرِزًا دَوْرَ البَيَانِ وَالإِقْنَاعِ وَالعَادَةِ فِي إِنْتَاجِ الامْتِثَالِ.**

**3. أَثْبَتَ البَحْثُ أَنَّ الطَّاعَةَ عِنْدَ الجَاحِظِ مَشْرُوطَةٌ بِالعَدْلِ وَالعَقْلِ وَمُفْتَتَحَةٌ عَلَى إِمْكَانِ النَّقْدِ وَالرَّفْضِ، بِمَا يَمْنَعُ تَحَوُّلَهَا إِلَى خُضُوعٍ مُطْلَقٍ.**

**4. بَيَّنَت الدِّرَاسَةُ أَنَّ فُوكُو يَكْشِفُ بِدِقَّةٍ عَنْ تِقْنِيَّاتِ السُّلْطَةِ الحَدِيثَةِ الَّتِي تُنْتِجُ ذَوَاتٍ مُنْضَبِطَةً عَبْرَ التَّطْبِيعِ وَإِنْتَاجِ المِعْيَارِ وَالرَّقَابَةِ الذَّاتِيَّةِ.**
**5. تَبَيَّنَ أَنَّ الفَرْقَ الجَوْهَرِيَّ بَيْنَ النَّسَقَيْنِ يَتَمَثَّلُ فِي أَنَّ فُوكُو يَقِفُ عِنْدَ حَدِّ التَّشْخِيصِ، بَيْنَمَا يَتَّجِهُ الجَاحِظُ إِلَى تَأْسِيسِ مِعْيَارٍ تَقْوِيمِيٍّ أَخْلَاقِيٍّ يَحْكُمُ الطَّاعَةَ.**
**6. أَكَّدَ البَحْثُ أَنَّ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ تُنْتَجُ خِطَابِيًّا وَثَقَافِيًّا قَبْلَ أَنْ تَتَجَسَّدَ سِيَاسِيًّا، فَهِيَ تَتَشَكَّلُ بِاللُّغَةِ وَالتَّنْشِئَةِ وَالعُرْفِ وَالمِعْيَارِ.**
**7. خَلُصَتِ الدِّرَاسَةُ إِلَى أَنَّ خُطُورَةَ هَذِهِ الطَّاعَةِ تَكْمُنُ فِي طَابِعِهَا اللَامَرْئِيِّ، حَيْثُ تَخْتَفِي السُّلْطَةُ خَلْفَ مَا يُبْدُو طَبِيعِيًّا أَوْ عَقْلَانِيًّا أَوْ أَخْلَاقِيًّا.**
**8. أَثْبَتَتِ المُقَارَنَةُ أَنَّ وَصْلَ الجَاحِظِ بِفُوكُو لَيْسَ تَارِيخِيًّا فَقَطْ، بَلْ إِبِسْتِمُولُوجِيٌّ وَنَقْدِيٌّ، يُظْهِرُ رَاهِنِيَّةَ التُّرَاثِ فِي فَهْمِ السُّلْطَةِ الحَدِيثَةِ.**
**9. اِنْتَهَتِ الدِّرَاسَةُ إِلَى أَنَّ الطَّاعَةَ الطَّوْعِيَّةَ تَظَلُّ اِخْتِبَارًا لِحُرِّيَّةِ الذَّاتِ: فَإِمَّا أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى أَدَاةٍ لِإِعَادَةِ إِنْتَاجِ السُّلْطَةِ، وَإِمَّا أَنْ تُضْبَطَ بِالعَقْلِ وَالنَّقْدِ وَالأَخْلَاقِ.**

**التَّوْصِيَاتُ:**

**1. تَدْعُو الدِّرَاسَةُ إِلَى تَوْسِيعِ أَبْحَاثِ السُّلْطَةِ فِي التُّرَاثِ العَرَبِيِّ الإِسْلَامِيِّ، خَاصَّةً فِي مَشَارِيعِ مُفَكِّرِينَ كَالْجَاحِظِ، بِمَنْظُورٍ فَلْسَفِيٍّ نَقْدِيٍّ يَكْشِفُ آلِيَّاتِ الإِقْنَاعِ وَتَشْكِيلِ الوَعْيِ.**
**2. تُوصِي الدِّرَاسَةُ بِإِدْمَاجِ مَقُولَةِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ فِي مَبَاحِثِ الفَلْسَفَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالأَخْلَاقِيَّةِ، لِمَا تَكْشِفُهُ مِنْ أَبْعَادٍ خَفِيَّةٍ لِلسُّلْطَةِ.**
**3. تَدْعُو النَّتَائِجُ إِلَى تَعْزِيزِ الدَّوْرِ التَّقْوِيمِيِّ لِلأَخْلَاقِ وَالعَقْلِ العَمَلِيِّ فِي دِرَاسَةِ السُّلْطَةِ، تَفَادِيًا لِتَحْوِيلِ النَّقْدِ إِلَى تَشْخِيصٍ وَصْفِيٍّ مَحْضٍ.**
**4. تُوصِي الدِّرَاسَةُ بِتَطْوِيرِ مَقَارَبَاتٍ مُقَارِنَةٍ جَدِيدَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ التُّرَاثِ وَمَنَاهِجِ الفِكْرِ الحَدِيثِ عَلَى أَسَاسِ إِبِسْتِمُولُوجِيٍّ نَقْدِيٍّ.**
**5. تَدْعُو الدِّرَاسَةُ إِلَى تَفْعِيلِ النَّقْدِ الذَّاتِيِّ فِي الخِطَابِ الثَّقَافِيِّ وَالتَّرْبَوِيِّ، لِمُقَاوَمَةِ أَشْكَالِ الطَّاعَةِ المُطَبَّعَةِ الَّتِي تَتَسَلَّلُ إِلَى الوَعْيِ بِاسْمِ القِيَمِ وَالعُرْفِ.**
**6. تُوصِي الدِّرَاسَةُ بِقِرَاءَةِ فُوكُو فِي السِّيَاقِ العَرَبِيِّ قِرَاءَةً نَقْدِيَّةً تُفَرِّقُ بَيْنَ قُوَّةِ التَّشْخِيصِ وَحُدُودِ الحِيَادِ الأَخْلَاقِيِّ.**
**7. تَقْتَرِحُ الدِّرَاسَةُ تَوْجِيهَ أَبْحَاثٍ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ لِتَحْلِيلِ الطَّاعَةِ الطَّوْعِيَّةِ فِي السِّيَاقَاتِ المُعَاصِرَةِ، كَالإِعْلَامِ وَالتِّقْنِيَّاتِ الرَّقْمِيَّةِ وَالثَّقَافَةِ الاِسْتِهْلَاكِيَّةِ، لِفَهْمِ تَحَوُّلَاتِ السُّلْطَةِ النَّاعِمَةِ وَتَطْبِيعِ الامْتِثَالِ.**

**قائمة المصادر والمراجع:**


**أولًا: المصادر التراثية**

1. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1998.
2. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1996.
3. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. الرسائل، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1998.
4. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم. تأويل مختلف الحديث، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د.ت.
5. ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب، بيروت: دار صادر، 2003.

**ثانيًا: المراجع العربية الحديثة:**

6. الجابري، محمد عابد. العقل السياسي العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2001.
7. طه عبد الرحمن. روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2006.
8. طه عبد الرحمن. سؤال الأخلاق، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2000.
9. أركون، محمد. نقد العقل الإسلامي، ترجمة: هاشم صالح، بيروت: دار الساقي، 1998.
10. أركون، محمد. الفكر الإسلامي: قراءة علمية، ترجمة: هاشم صالح، بيروت: دار الساقي، 1996.
11. عبد الله العروي. مفهوم الدولة، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1996.
12. المسيري، عبد الوهاب. العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، القاهرة: دار الشروق، 2002.

**ثالثًا: المراجع الأجنبية**

13. Foucault, Michel. Discipline and Punish: The Birth of the Prison, Trans. Alan Sheridan, New York: Vintage Books, 1979.
14. Foucault, Michel. Power/Knowledge: Selected Interviews and Other Writings, Trans. Colin Gordon, New York: Pantheon Books, 1980.

15. Foucault, Michel. The History of Sexuality, Vol. 1: An Introduction, Trans. Robert Hurley, New York: Vintage Books, 1978.
16. Foucault, Michel. Security, Territory, Population, Trans. Graham Burchell, New York: Palgrave Macmillan, 2007.
17. Arendt, Hannah. The Human Condition, Chicago: University of Chicago Press, 1958.
18. Arendt, Hannah. On Violence, New York: Harcourt Brace & Company, 1970.
19. Bourdieu, Pierre. Language and Symbolic Power, Trans. Gino Raymond & Matthew Adamson, Cambridge: Polity Press, 1991.
20. Gramsci, Antonio. Selections from the Prison Notebooks, Trans. Quintin Hoare & Geoffrey Nowell Smith, New York: International Publishers, 1971.